دُومَة وَد حَامِدْ

الطيّب صالح

دُومة وَد حَامِد

سَبْعُ قصَص

دارُ الجيل
بيروت

الطبعَة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الإهداء

إلى أخي فتح الرحمن البشير

نخلَة على الجدول

«يفتح الله!». . .

«عشرون جنيهاً يا رجل، تحل منها ما عليك من دين، وتصلح بها حالك. وغداً العيد، وانت لم تشترِ بعد كبش الضحية! واقسم لولا أنني أريد مساعدتك، فإن هذه النخلة لا تساوي عشرة جنيهات».

وتململ حمار حسين التاجر في وقفته. ولم يكن صاحبه قد ترجل عنه، فإنه لم يرد أن يظهر لشيخ محجوب تلهفه على شراء النخلة ذات البنات الخمس، التي يسميها السودانيون في الشمال «الأساسق»، وقد قامت وسطها النخلة الأم، ممشوقة متغطرسة، تتلاعب بغدائرها النسمات الباردة التي هبت من الشمال تحمل قطرات من مياه النيل. ورأى الحمار الأبيض البدين حمارة أنثى ترعى عن بعد بين سيقان الذرة. فنهق نهيقاً أجهش ممتداً، ثم رفع رجله الخلفية اليسرى ووضعها، ورفع رجله الأمامية اليمنى ووقف على

حافة حافره، وتشاغل بخصل من نبات «السّعدة» الريانة التي نمت على حافة الجدول، وكأنه قد تبرم بهذه المساومة التي لم يكن من ورائها طائل. والحق أن حسين التاجر، بثيابه البيضاء الفضفاضة، وعباءته السوداء التي اشتراها في زيارة له للخرطوم، وعمامته من «الكرب» نمرة واحد، وحذائه الأحمر الذي لم تخرج أيدي صناع «المراكيب»[1] في الفاشر أجود منه، وحماره الأبيض البدين اللامع، والسرج الأحمر المدهن، والفروة البنية التي تدلت وكادت تمس الأرض، كان صورة مجسمة للكبرياء والغطرسة.

ولكن شيخ محجوب لم يحر جواباً، وكان يبدو في وقفته تلك كالمشدوه، يرنو إلى أفق بعيد متناء. ورويداً رويداً خفتت في أذنيه ضوضاء «أهل الخير» الذين تجمعوا ليتوسطوا بين التاجر وشيخ محجوب، وخفت صوت الساقية الحزين المتصل.

ولف ضباب الذكريات معالم الأشياء الممتدة أمام ناظري شيخ محجوب. الناس والبهائم وغابة النخيل الكثة

---

(١) هي الأحذية السودانية الشعبية.

المتلاصقة، وأحواض الذرة الناضجة التي لم تحصد بعد، والأحواض الجرداء العارية قطعت منها الذرة، وسرحت على بقاياها قطعان الضَّان والماعز. كل ذلك تحول إلى أشباح يتراقص في وسطها جريد نخلة محجوب. وفي أقل من لمحة الطرف استعرض الرجل حاضره. أجل، غداً عيد الأضحى حين يخرج الناس مع شروق الشمس في ثيابهم النظيفة الجديدة، ويصلون مجتمعين على مقربة من ضريح الشيخ صالح. وإذ يعودون إلى بيوتهم تنضح وجوههم بالبشر والسعادة، وتسيل دماء الأضاحي، ويقبل الأضياف ويخرجون، ويتردد في الحي صدى ضحكاتهم أما هو. . . أما بيته. . .؟ إنه لا يملك ثوباً نظيفاً يخرج به إلى الصلاة، وليس عند زوجته غير «ثوب زراق» اشتراه لها قبل شهرين نال منه البلى وتراكمت عليه الأوساخ. أما ابنته خديجة فقد كادت تفتت قلبه ببكائها من أجل ثوب جديد تعرضه على لداتها وتعيِّد به مع صاحباتها. ومن أين له جنيهات ثلاثة يشتري بها خروفاً يضحي به؟

وتمتم شيخ محجوب في صوت لا يكاد يسمع، شيء يشبه التوسل والابتهال: «يفتح الله» وزم شفتيه في

عصبية، وعاد بعقله خمسة وعشرين عاماً إلى الوراء. ألا ما أعجب تقلبات هذا الزمن! لقد كان يومئذ شاباً قوياً أعزب لم يبلغ الثلاثين بعد، يعمل في ساقية أبيه مقابل كسوته وشرابه. فلم يكن يحتاج إلى المال، ولم يكن يعرف له قيمة. وفي ذات صباح مشرق من أصباح الصيف، مر بابن عمه إسماعيل، وكان الأخير منهمكاً يقلع الشتل ليغرسه في أماكن أخرى من أرض الساقية. ووقع نظر محجوب على شتلة صغيرة رماها إسماعيل بعيداً، على أنها خالية من «الأضراس» لا تصلح. فالتقطها محجوب ونفض عنها التراب، وقال لابن عمه ضاحكاً: «باكر تشوف دي تبقى تمرة زي العجب». وتبسم إسماعيل في سخرية، واستغرق في عمله. وعلى حافة الجدول قريباً من الساقية، شق محجوب حفرة صغيرة وضع فيها «النخيلة» وواراها التراب وفتح لها الماء بعد أن تلا آيات من القرآن وردد في شيء من الخشوع: «بسم الله، ما شاء الله.، لا حول ولا قوة إلا بالله»، مثلما يفعل أبوه كلما غرس شتلة أو حصد نبتاً. ولم ينسَ أن يصب في الحفرة قليلاً من ماء الإبريق الذي يتوضأ به أبوه تيمناً وتبركاً.

وأنزل محجوب غصة صعدت في حلقه، ثم مرر أصابع يده النحيلة المعروقة بين شعيرات لحيته المتفرقة. ألا ما كانِ أبرك ذلك العام! بعد ستة أشهر فقط من غرسه «النخيلة» تزوج من ابنة عمه، ولم يكن يملك من مال الدنيا شروى نقير. ولا هو يدري إلى الآن كيف تمت المعجزة. إنه لم يكن يظن أبداً أنه سيتزوج في يوم من الأيام، هو الذي عاش أيام صباه منبوذاً محتقراً من أهله مجفواً من الحسان، يتهمه كل أحد بالغباء والخيبة. وطالما ترنم وهو يخوض الماء في لذعة البرد، عاري الرأس، عاري الصدر:

«الدنيا بتهينك والزمانْ يُوريكْ

وقَلْ المالْ يِفرقْك من بنات واديكْ»

غير أنه تزوج، ولبس حريرة العرس، وتمسح بالدلكة، ووضع على رأسه «الضريرة»، وأحاطت به الصبايا يهزجن بالأغاني. ولكم شعر بالعظمة والكبرياء وقتها. كل ذلك بعد غرسه النخلة بستة أشهر. وفي العام التالي ولدت زوجته بنتاً أسماها آمنة تيمناً بمقدمها، ووفاء لذكرى جدته التي كانت تعطف عليه من بين أهله جميعاً. وحينما وصل به تيار الذكريات إلى مولد آمنة، ترقرق في عينيه الدمع. أين الآن

آمنة؟ إنها زوجة لابن اخته، الذي حملها إلى أقاصي الصعيد في الجزيرة، وقد كانت تبره وتعطف عليه.

ليتَ حسَناً كان مثلها عطوفاً باراً. حسن! وعض الرجل على شفته السفلى بعنف حتى كاد يغرس أسنانه في لحمها المتهدل. حسن ابنه الوحيد، سافر قبل خمسة أعوام إلى مصر، ومن وقتها لم يرسل لهم حتى خطاباً واحداً يطمئنهم فيه عن صحته. لقد حاول الرجل جاهداً أن ينساه، ويمحوه من ذاكرته، ويعده من الأموات. وكانت زوجته تبكي كلما ردد محجوب في صوت حزين متهدج بيت الدوبيت الذي كان له خير سلوى، كلما جاشت بنفسه الذكرى، وكلما تمثل ابنه طفلاً صغيراً حلواً يبول في حجره، ثم صبياً يساعده في أعمال الساقية، ثم شاباً يافعاً يشب عن الطوق، ويهجر الأهل والدار، وينسى حقوق الأبوة، ولا يسأل عن الأحياء ولا الأموات. أجل والله «الزول ان أباك خليه واقنع منه، وكم لله من دفن الجنى وفات منه».

وكأن القدر أراد أن ينسيهم كل شيء يربطهم بحسن، فرمى آخر ما في جعبته من سهام قاسية مسمومة ظل يسددها منذ عامين، تباعاً ودون توقف. وأصاب السهم الأخير النعجة

«البرقاء» التي رباها حسن، وجمع لها الحشيش وأشركها طعامه وأنامها في فراشه. ماتت وما عادت تثغو في بكرة الصباح حين كان حسن يقفز نشيطاً خفيفاً من فراشه فيطعمها ويسقيها ويأخذها معه إلى الساقية، ترعى وتمرح وتتلف الزرع ريثما يفرغ هو من عمله. ماتت، وكذلك اجتاح المحل والقحط كل القطيع الذي رباه شيخ محجوب.

ثم رفرف طائف من السعادة على الوجه الخشن المجعد، وجه محجوب. وغابت المرارة التي أحدثها ذكر حسن عندما تذكر الرجل قطيع الضأن الذي رباه في ذات العام الذي شهد مولد آمنة. قطيع كامل من نعجة واحدة اشتراها بما تجمع عنده من ثمن جيضبان البصل. كان يعاملها كما يعامل أبناءه، يحلب لبنها بنفسه ويكوم القش في مراحها ويفك لها صغارها ويلبث الساعة والساعتين يداعبها وينظف وبرها، وتغمره السعادة وهو يشاهدها تناغي صغارها وتشرب الماء المخلوط بالدريش، وتتناطح فيما بينها. كان يطلق عليها الأسماء كما يسمي الناس أطفالهم، يعرف كل واحدة منها بسيماها. ذات الذيل الأبيض، وذات البقعة السوداء على أم الظهر كسرج الدابة، والخروف ذو القرن المكسور، والخروف

ذو القرنين الملتوين. وبعد عامين من زواجه اشترى عجلة صغيرة عجفاء والاها بالعلف والحبوب حتى استوت بقرة جميلة كحيلة العينين لها غرة في جبينها تجر الساقية وتدر اللبن. وفي أثناء ذلك أثمرت نخلة الجدول، أول شيء يمتلك في حياته. وسارت الحياة رغداً كأنما استجاب الله دعاءه يوم شق في الأرض على حافة الجدول وغرس النخلة. لقد استغنى عن ابيه، وبنى لنفسه بيتاً يؤويه مع عائلته، وصار ثرياً يعد المال مثل أي تاجر، يجلس في السوق منتصباً تملأه الثقة أمام كوم الذرة، يكيل منه للمشترين وينتهر زملاءه غير هياب ولا مكترث. وصار يلبس النظيف، ويأكل الطيب، وينام على الفراش اللين، ويتدثر في برد الشتاء ببطانية ثقيلة من الصوف أنفق فيها جنيهين. وحينما كان الناس يتبرعون في الأعراس بخمسة قروش كان يتبرع هو بعشرة، وبزجاجة مليئة من سمن الضأن النقي، وكيلة من أجود أنواع التمر «القنديل» حتى لقب بالظريف بعد أن كان يلقب بالغبي. ولولا تعلقه بزوجته لتزوج بنتاً بكراً يتهافت عليها خيرة شبان البلد.

كل هذا عفى على آثاره الزمن. لقد مات الزرع، ويبس الضرع، وعم القحط فأغرق الرخاء، وحبا الشيب فطفا على

الشباب، وكان النيل يفيض بين ضفتيه زاخراً موارا، يسقي الأرض ويخرج ما في باطنها من الخير، فما عاد يفيض إلا بحساب ومقدار. أتراها الخزانات التي أقاموها عليه فحجزت الماء؟ أم تراها نبوءة الشيخ ود دوليب تحققت؟ لقد أنذر الناس في يوم من الأيام أنه سيأتي عليهم يوم، يصير فيه اللبن كثيراً تافهاً مثل الماء، وتصير كيلة الذرة بقرشين، ويصبح ثمن النعجة ريالين. ولكن الناس كدأبهم أبداً سيضيقون بهذا الخير، وسينهمكون في الغي وينسون الله، فيأخذهم الله بذنوبهم. وفكر شيخ محجوب برهة، وحدث نفسه بأنه لم يرتكب كثيراً من المعاصي. صحيح أنه كان يشرب الخمر أحياناً ويرقص في الأعراس ويخالس الحسان النظر على غفلة من أم حسن. ولكنه لم يؤخر فرضاً ولم يهتك عرضاً ولم يفعل شيئاً من هذه المعاصي التي يقول فقهاء القرية إنها كبائر تغضب الله. لا بد أنه الكبر الذي فت من عضده وأرخى من مفاصله، فما عاد يحتمل لذعة البرد ولا قائظ الحر. ولم يكن حريصاً على ما عنده من خير، فبدَّده أولاً بأول. وفي غمرة أتعابه ومرير شيخوخته هجره ابنه حسن، وهو أحوج ما يكون إلى ساعده الفتي. وهكذا ظل محجوب يكابد الفاقة وحده،

فاستدان ورهن وباع. وليس عنده اليوم من مال الدنيا إلا بقرة واحدة وعنزتان وهذه النخلة التي ظل جاهداً يحاول استبقاءها.

وقطع عليه ذكرياته نهيق حمار التاجر، وصوت صاحب الحمار وهو يقول له: «يا راجل انت ساكت زي الأبله مالك؟ ما تدينا كلمة واحدة خلينا نمشي؟» وكان رمضان قد جاء من طرف الساقية، وقال لمحجوب إن عشرين جنيهاً ثمن معقول، خاصة وهو أحوج ما يكون إلى المال. وفكر الرجل برهة متردداً بين الرفض والقبول. عشرون جنيهاً يستطيع أن يحل منها دينه، ويشتري ضحية العيد، ويكسو نفسه وأهل بيته. ولكن ريحاً قوية هبت تتلاعب بجريد النخلة، فأخذ يوشوش ويتعارك ويتلاطم كغريق يطلب النجاة. وبدت النخلة لمحجوب في وقفتها تلك رائعة أجمل من أي شيء في الوجود. وهفا قلبه لابنه في مصر. ترى هل يحن لنداء الرحم؟ هل تؤثر في قلبه الدعوات التي أرسلها محجوب في هدأة الليل، وأحس الرجل بفيض من الأمل يملأ كيانه ويطغى على إحساسه، وترقرق في عينه دمع حبسه جاهداً، وتمتم: «يفتح الله. أنا تمرتي ما ببيعها». وردد الرجل في نفسه:

«يفتح الله» وقاده ذلك إلى التفكير في سورة الفتح من القرآن الكريم ـ ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ ـ الفاتحة ـ الفرج. وأحس لأول مرة بأن في عبارة «يفتح الله» شيئاً أكثر من كلمة تنهي بها المبايعة، وتقفل الباب في وجه من يريد الشراء. إنها مفتاح لمن أعسره الضيق وأمضه البؤس وأثقلت كاهله أعباء الحياة. وما كان أحوج محجوب إلى الفتح والفرج حينئذ.

وجذب التاجر عنان حماره في صلف، ثم همز بطن الحمار بكعب رجله، وقال في صوت بارد كوقع الصوت: «يفتح الله، يفتح الله، باكر بتجي تدورالدين».

وقبل أن ينطلق الحمار بعيداً أبصر محجوب ابنته الصغيرة تهرول نحوه مضطربة فرحة. فتحرك في قلبه أمل بدأ عسيراً مستحيلاً أبعده عنه. ولم ينتظر الطفلة ريثما تصل، بل أسرع نحوها يسألها عن الخبر: «شنو؟ مالك؟» وحاولت الصبية أن تفض إليه النبأ بصوت متكسر الثغ: «الناس.. دالو ودست البنات دا من مسر... وداب لنا معاه دواب من حسن اخوي».

جواب من حسن؟ وانطلق الرجل كالمجنون لا يفكر ولا يعي بنبض قلبه معربداً ـ بين جنبيه. يطغى الأمل بين

حناياه مرة على اليأس، ويفيض اليأس تارة فيغرق الأمل. وابنته الصغيرة تمسك بطرف ثوبه المتسخ، تسرع جاهدة لكي تمشي معه، وهي أثناء ذلك تتباكى محتجة على خطوات أبيها المسرعة.

وفي بيت (ناس ست البنات) انتظر محجوب بين صفوف المستقبلين. وفي غمرة اضطرابه لم يفت عينه المستطلعة رجال يعرفهم جاؤوا يسألون عن أبنائهم وأقاربهم ونسوة يعرفهن جئن يسألن عن أزواجهن وأبنائهن. كلهم آمال مثل آماله، تجاذب اليأس ويغالبها اليأس. ولم تخطئ عينه الشاب الذي عاد من مصر، ودست البنات يرتدي ملابس نظيفة ككل عائد من السفر، ويتكلم لهجة غريبة على شيخ محجوب، بادي الثقة بادي الكبرياء. وأخيراً لمح الشاب شيخ محجوب بين المستقبلين فدلف نحوه مبتسماً. وشعر الرجل بالضيق والحرج، إذ تحوَّلت كل الأبصار نحوه. ولم يع شيخ محجوب من كلام محدثه إلا (حسن مبسوط ـ قال لك تعفي عنه. أرسل لك ثلاثين جنيه وطرد ملابس).

وفي الطريق إلى بيته تحسس الرجل رزمة المال التي صرها جيداً في طرف ثوبه، ثم غرس أصابعه في الطرد

السمين تحت إبطه، وانحدر طرفه من علٍ إلى غابة النخل الكثيفة الممتدة عند أسفل البيوت، وتميز في وسطها نخلته، ممشوقة متغطرسة جميلة تتلاعب بجريدها نسمات الشمال.

وخيل إليه أن سعف النخلة يرتجف مسبحاً: «يفتح الله، يفتح الله».

حفنة تمر

لا بد أنني كنت صغيراً جداً حينذاك. لست أذكر كم كان عمري تماماً، ولكنني أذكر أن الناس حين كانوا يرونني مع جدي كانوا يربتون على رأسي، ويقرصونني في خدي، ولم يكونوا يفعلون ذلك مع جدي. العجيب أنني لم أكن أخرج أبداً مع أبي، ولكن جدي كان يأخذني معه حيثما ذهب، إلا في الصباح حين كنت أذهب إلى المسجد، لحفظ القرآن. المسجد والنهر والحقل، هذه كانت معالم حياتنا. أغلب أندادي كانوا يتبرمون بالمسجد وحفظ القرآن ولكنني كنت أحب الذهاب إلى المسجد. لا بد أن السبب أنني كنت سريع الحفظ، وكان الشيخ يطلب مني دائماً أن أقف وأقرأ سورة الرحمن، كلما جاءنا زائر. وكان الزوار يربتون على خدي ورأسي، تماماً كما كانوا يفعلون حين يرونني مع جدي. نعم كنت أحب المسجد. وكنت أيضاً أحب النهر. حالما نفرغ من قراءتنا وقت الضحى، كنت أرمي لوحي

الخشبي، وأجري كالجن إلى أمي، وألتهم إفطاري بسرعة شديدة وأجري إلى النهر وأغمس نفسي فيه. وحين أكلُّ من السباحة، كنت أجلس على الحافة وأتأمل الشاطئ الذي ينحني في الشرق ويختبئ وراء غابة كثيفة من شجر الطلح. كنت أحب ذلك. كنت أسرح بخيالي وأتصور قبيلة من العمالقة يعيشون وراء تلك الغابة... قوم طوال فحال لهم لحى بيضاء وأنوف حادة مثل أنف جدي. أنف جدي كان كبيراً حاداً. قبل أن يجيب جدي على أسئلتي الكثيرة، كان دائماً يحك طرف أنفه بسبابته. ولحية جدي كانت غزيرة ناعمة بيضاء كالقطن. لم أرَ في حياتي بياضاً أنصع ولا أجمل من بياض لحية جدي. ولا بد أن جدي كان فارع الطول، إذ إنني لم أرَ أحداً في سائر البلد يكلم جدي إلا وهو يتطلع إليه من أسفل، ولم أرَ جدي يدخل بيتاً إلا وكان ينحني انحناءة كبيرة تذكرني بانحناء النهر وراء غابة الطلح. كان جدي طويلاً ونحيلاً وكنت أحبه وأتخيل نفسي، حين أستوي رجلاً، أذرع الأرض مثله في خطوات واسعةٍ. وأظن جدي كان يؤثرني دون بقية أحفاده. ولست ألومه، فأولاد أعمامي كانوا أغبياء وكنت أنا طفلاً ذكياً. هكذا قالوا لي. كنت أعرف متى يريدني جدي أن

أضحك ومتى يريدني أن أسكت، وكنت أتذكر مواعيد
صلاته، فأحضر له «المصلاة» وأملأ له الإبريق قبل أن يطلب
ذلك مني. كان يلذ له في ساعات راحته أن يستمع إليّ أقرأ له
من القرآن بصوت منغم، وكنت أعرف من وجه جدي أنه
أيضاً كان يطرب له. سألته ذات يوم عن جارنا مسعود. قلت
لجدي: «أظنك لا تحب جارنا مسعود؟» فأجاب بعد أن حك
طرف أنفه بسبابته: «لأنه رجل خامل وأنا لا أحب الرجل
الخامل». قلت له: «وما الرجل الخامل؟» فأطرق جدي برهة
ثم قال لي: «انظر إلى هذا الحقل الواسع، ألا تراه يمتد من
طرف الصحراء إلى حافة النيل مائة فدان؟ هذا النخل الكثير
هل تراه؟ وهذا الشجر؟ سنط وطلح وسيال. كل هذا كان
حلالاً بارداً لمسعود، ورثه عن أبيه». وانتهزت الصمت الذي
نزل على جدي، فحولت نظري عن لحيته وأدرته في الأرض
الواسعة التي حددها لي بكلماته. «لست أبالي من يملك هذا
النخل ولا ذلك الشجر ولا هذه الأرض السوداء المشققة. كل
ما أعرفه أنها مسرح أحلامي ومرتع ساعات فراغي». بدأ
جدي يواصل الحديث: «نعم يا بنيّ. كانت كلها قبل أربعين
عاماً ملكاً لمسعود. ثلثاها الآن لي أنا». كانت هذه حقيقة

مثيرة بالنسبة لي، فقد كنت أحسب الأرض ملكاً لجدي منذ خلق الله الأرض. «ولم أكن أملك فداناً واحداً حين وطئت قدماي هذا البلد. وكان مسعود يملك كل هذا الخير. ولكن الحال انقلب الآن، وأظنني قبل أن يتوفاني الله سأشتري الثلث الباقي أيضاً». لست أدري لماذا أحسست بخوف من كلمات جدي. وشعرت بالعطف على جارنا مسعود. ليت جدي لا يفعل! وتذكرت غناء مسعود وصوته الجميل وضحكته القوية التي تشبه صوت الماء المدلوق. جدي لم يكن يضحك أبداً. وسألت جدي لماذا باع مسعود أرضه؟ (النساء). وشعرت من نطق جدي للكلمة أن «النساء» شيء فظيع. «مسعود يا بنيّ رجل مزواج كل مروة تزوج مرة باع لي فداناً أو فدانين». وبسرعة حسبت في ذهني أن مسعود لا بد أن تزوج تسعين امرأة، وتذكرت زوجاته الثلاث وحاله المبهدل وحمارته العرجاء وسرجه المكسور وجلبابه الممزق الأيدي. وكدت أتخلص من الذكرى التي جاشت في خاطري، لولا أنني رأيت الرجل قادماً نحونا، فنظرت إلى جدي ونظر إليّ. وقال مسعود: «سنحصد التمر اليوم، ألا تريد أن تحضر؟» وأحسست أنه لا يريد جدي أن يحضر بالفعل. ولكن جدي

هب واقفاً، ورأيت عينه تلمع ببرهة ببريق شديد، وشدني من يدي وذهبنا إلى حصاد تمر مسعود. وجاء أحد لجدي بمقعد عليه فروة ثور. جلس جدي وظللت أنا واقفاً. كانوا خلقاً كثيراً. كنت أعرفهم كلهم، ولكنني لسبب ما أخذت أراقب مسعوداً. كان واقفاً بعيداً عن ذلك الحشد كأن الأمر لا يعنيه، مع أن النخل الذي يحصد كان نخله هو، وأحياناً يلفت نظره صوت سبيطة ضخمة من التمر وهي تهوي من علٍ. ومرة صاح بالصبي الذي استوى فوق قمة النخلة، وأخذ يقطع السبيط بمنجله الطويل الحاد: «حاذر لا تقطع قلب النخلة». ولم ينتبه أحد لما قال، واستمر الصبي الجالس فوق قمة النخلة يعمل منجله في العرجون بسرعة ونشاط. وأخذ السبط يهوي كشيء ينزل من السماء. ولكنني أنا أخذت أفكر في قول مسعود: «قلب النخلة» وتصورت النخلة شيئاً يحس له قلب ينبض. وتذكرت قول مسعود لي مرة حين رآني أعبث بجريد نخلة صغيرة: «النخل يا بنيّ كالآدميين يفرح ويتألم». وشعرت بحياء داخلي لم أجد له سبباً. ولّما نظرت مرة أخرى إلى الساحة الممتدة أمامي رأيت رفاقي الأطفال يموجون كالنمل تحت جذوع النخل يجمعون التمر ويأكلون أكثره.

واجتمع التمر أكواماً عالية. ثم رأيت قوماً أقبلوا وأخذوا يكيلونه بمكاييل ويصبونه في أكياس. وعددت منها ثلاثين كيساً. وانفض الجمع عدا حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من الشرق، ورجلين غريبين لم أرَهما من قبل. وسمعت صفيراً خافتاً، فالتفت فإذا جدي قد نام، ونظرت فإذا مسعود لم يغير وقفته ولكنه وضع عوداً من القصب في فمه وأخذ يمضغه مثل شخص شبع من الأكل وبقيت في فمه لقمة واحدة لا يدري ماذا يفعل بها. وفجأة استيقظ جدي وهبّ واقفاً ومشى نحو أكياس التمر وتبعه حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا والرجلان الغريبان. وسرت أنا وراء جدي ونظرت إلى مسعود فرأيته يدلف نحونا ببطء شديد كرجل يريد أن يرجع ولكن قدميه تريد أن تسير إلى أمام. وتحلقوا كلهم حول أكياس التمر وأخذوا يفحصونه وبعضهم أخذ منه حبة أو حبتين فأكلها. وأعطاني جدي قبضة من التمر فأخذت أمضغه. ورأيت مسعوداً يملأ راحته من التمر ويقربه من أنفه ويشمه طويلاً ثم يعيده إلى مكانه. ورأيتهم يتقاسمونه. حسين التاجر أخذ عشرة أكياس، والرجلان الغريبان كل منهما أخذ خمسة

أكياس. وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من ناحية الشرق أخذ خمسة أكياس، وجدي أخذ خمسة أكياس. ولم أفهم شيئاً. ونظرت إلى مسعود فرأيته زائغ العينين تجري عيناه شمالاً ويميناً كأنهما فأران صغيران تاها عن جحرهما. وقال جدي لمسعود: ما زلت مديناً لي بخمسين جنيها نتحدث عنها فيما بعد، ونادى حسين صبيانه فجاؤوا بالحمير، والرجلان الغريبان جاءا بخمسة جمال. ووضعت أكياس التمر على الحمير والجمال. ونهق أحد الحمير وأخذ الجمل يرغي ويصيح. وشعرت بنفسي أقترب من مسعود. وشعرت بيدي تمتد إليه كأني أردت أن ألمس طرف ثوبه. وسمعته يحدث صوتاً في حلقه مثل شخير الحمل حين يذبح. ولست أدري السبب، ولكنني أحسست بألم حاد في صدري. وعدوت مبتعداً. وشعرت أنني أكره جدي في تلك اللحظة. وأسرعت العدو كأنني أحمل في داخل صدري سراً أود أن أتخلص منه. ووصلت إلى حافة النهر قريباً من منحناه وراء غابة الطلح. ولست أعرف السبب،ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي وتقيأت التمر الذي أكلت.

رسالة إلى إيلين

عزيزتي إيلين،

الآن انتهيت من فض حقائبي. أنت عظيمة ولست أدري ماذا أفعل بدونك. كل شيء يلزمني وضعْتِهِ في الحقائب. تسعة قمصان «فان هوسن» ثلاثة منها لا تحتاج للكيّ. «أغسلها ونشفها والبسها». وأنت تعلمين أنني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل. ربطة العنق التي اشتريتها لي في العام الماضي في بوند ستريت، وجدتها مع خمس كرافتات أخرى. «خمس كرافتات تكفيك. أنت لن تخرج كثيراً ولن يدعوك أحد لحفلة. وإذا دعيت فلا تذهب». كم أحببتك لأنك لم تنسي أن تضعي في حقائبي هذه الربطة... ربطة عنق قرمزية اللون، واحدة من ملايين الأشياء الصغيرة التي تشد قلبي إليك.. في مثل هذا الوقت من العام الماضي، بعد ثمانية أشهر من معرفتي إياك، في القطار الذي يسير تحت الأرض، الساعة السادسة والناس مزدحمون. ونحن واقفان وأنت متكئة

عليّ، فجأة قلت لك: «إنني أحبك. أريد أن أتزوجك». احمرّ خداك والتفت الناس إلينا. طيلة ثمانية أشهر عرفتك فيها لم أقل لك إنني أحبك. كنت أتهرب وأداري وأزوغ. ثم فجأة وسط الزحام، في الساعة السادسة مساء، حين يعود الناس التعبين مرهقين إلى بيوتهم بعد عمل شاق طيلة اليوم، فجأة خرجت الكلمة المحرمة من فمي وكأنني محموم يهذي. لا أعلم أي شيطان حرك لساني، أي ثائر أثارني، ولكنني شعرت بسعادة عظيمة، في تلك الساعة، في ذلك الجو الخانق، بين تلك الوجوه الكالحة المكدودة التي اختفت وراء صحف المساء. ولما خرجنا ضغطت على يدي بشدة، ورأيت في عينيك طيفاً من دموع، وقلت لي: «إنك مهووس. أنت أهوس رجل على وجه البسيطة. ولكنني أحبك. إذا رأيت أن تتزوجيني فأنت وشأنك».

ثمانية أشهر وأنا أتهرب وأحاور وأحاضر. أحاضرك في الفوارق التي تفرقنا. الدين والبلد والجنس. أنت من ابردين في سكتلندا وأنا من الخرطوم. أنت مسيحيّة وأنا مسلم. أنت صغيرة مرحة متفائلة، وأنا قلبي فيه جروح بعد لم تندمل. أي شيء حببني فيك؟ أنت شقراء زرقاء العينيْن ممتلئة الجسم،

تحبين السباحة ولعب التنس، وأنا طول عمري أحن إلى فتاة سمراء، واسعة العينين، سوداء الشعر، شرقية السمات، هادئة الحركة. أي شيء حبَّبك فيَّ، أنا الضائع الغريب، أحمل في قلبي هموم جيل بأسره؟ أنا المغرور القلق المتقلب المزاج؟ «لا تتعب عقلك في تفسير كل شيء. أنت حصان هرم من بلد متأخر، وقد أراد القدر أن يصيبني بحبك. هذا كل ما في الأمر. تذكر قول شيكسبير. كيوبيد طفل عفريت. ومن عفرتته أنه أصاب قلبي بحب طامة كبيرة. مثلك». وتضحكين، ويقع شعرك الذهبي على وجهك فتردينه بيدك، ثم تضحكين ضحكتك التي تحاكي رنين الفضة. وذهبنا إلى مطعم صيني واحتفلنا، وكنت نسيت أن اليوم هو يوم ميلادي. أنا لا أحفل بأمسي ولا بيومي وأنت تحفلين بكل شيء. أنت تذكرت، فأحضرت ربطة العنق القرمزية هذه. كم أحبك لأنك وضعتها بين متاعي.

عزيزتي إيلين،

هذه هي الليلة الأولى بدونك... منذ عام. منذ عام كامل. ثلاثماية وخمس وستون ليلة، وأنت تشاركينني فراشي، تنامين على ذراعي، تختلط أنفاسنا وعطر أجسادنا،

تحلمين أحلامي، تقرأين أفكاري، تحضرين إفطاري، نستحم معاً في حمام واحد، نستعمل فرشاة أسنان واحدة، تقرأين الكتاب وتخبرينني بمحتواه فأكتفي بك فلا أقرأه. تزوجتني، تزوجت شرقاً مضطرباً على مفترق الطرق، تزوجت شمساً قاسية الشعاع، تزوجت فكراً فوضوياً، وآمالاً ظمأى كصحارى قومي. الليلةِ الأولى عداك يا طفلة من ابردين ـ وضعتها الأقدار في طريقي. تبينتك وآخيتني. «يا أختاه. يا أختاه». البذلة الرمادية التي تؤثرينها ـ «ثلاث بدل أكثر من الكفاية. رجل متزوج يقضي شهراً مع أهله لن يحفل بك أحد، ولن تهتم بك صبايا بلدك، ولا حاجة بك إلى هندمة نفسك والاعتناء بشكلك. ومهما يكن فإن شكلك لا تجدي معه هندمة. اذهب وعد إليّ سليماً: إذا ضحكت لك منهن فتاة فكشر في وجهها».

اطمئني فلن تضحك لي فتاة. أنا في حسابهن كنخلة على الشاطئ اقتلعها التيار وجرفها بعيداً عن منبتها. أنا في حسابهن تجارة كسدت. لكن ما أحلى الكساد معك.

الليلة الأولى بدونك. وبعدها ليالٍ ثلاثون كمفازة ليس لها آخر. سأجلس على صخرة قبالة دارنا وأتحدث إليك. أنا

واثق أنك تسمعينني. أنا واثق أن الرياح والكهرباء التي في الأثير والهواجس التي تهجس في الكون، سترهف آذانها، وستحمل حديثي إليك. موجات هوج من قلبي، تستقبلها محطة في قلبك. حين تنامي مدّي ذراعك حيث أضع رأسي على الوسادة، فإنني هناك معك. حين تستيقظين قولي «صباح الخير» فإنني سأسمع وأرد. أجل سأسمع. أنا الآن أسمع صوتك العذب الواضح تقولين لي: «اسعد في عطلتك ولكن لا تسعد أكثر مما يجب. تذكر أنني هنا أتضوى وأنتظرك. ستكون مع أهلك فلا تنسَ أنك برحيلك ستتركني بلا أهل».

أتم الخطاب وثناه أربع ثنيات ووضعه في الغلاف، ثم كتب العنوان. ورفعه بين اصبعيه وتمعنه طويلاً في صمت كأن فيه سراً عظيماً. نادى أخاه الصغير وأمره بإلقائه في البريد. مرت بعد ذلك مدة لم يعرف حسابها، لعلها طالت أو قصرت، وهو جالس حيث هو لا يسمع ولايرى شيئاً. وفجأة سمع ضحكة عالية تتناهى إليه من الجناح الشمالي في البيت. ضحكة أمه. واتضح لأذنيه اللغط، لغط النساء اللائي جئن يهنئن أمه بوصوله سالماً من البلد البعيد. كلهن قريباته. فيهن العمة والخالة وابنة العم وابنة الخالة. وظل كذلك برهة. ثم

جاء أبوه ومعه حشد من الرجال. كلهم أقرباؤه. سلموا عليه وجلسوا. جيء بالقهوة والشاي وعصير البرتقال وعصير الليمون. شيء يشبه الاحتفال. سألوه أسئلة رد عليها، ثم بدأوا في حديثهم الذي ظلوا يتحدثونه طول حياتهم وشعر في قلبه بالامتنان لهم أنهم تركوه وشأنه. وفجأة تضخمت في ذهنه فكرة ارتاع لها. هؤلاء القوم قومه. قبيلة ضخمة هو فرد منها. ومع ذلك فهم غرباء عنه. هو غريب بينهم. قبل أعوام كان خلية حيّة في جسم القبيلة المترابط. كان يغيب فيخلف فراغاً لا يمتلئ حتى يعود. وحين يعود يصافحه أبوه ببساطة وتضحك أمه كعادتها ويعامله بقية أهله بلا كلفة طوال الأيام التي غابها. أما الآن... أبوه احتضنه بقوة وأمه ذرفت الدموع وبقية أهله بالغوا في الترحيب به. هذه المبالغة هي التي أزعجته. كأن إحساسهم الطبيعي قد فتر فدعموه بالمبالغة.

«طويل الجرح يغري بالتناسي».

وسمع صوت إيلين واضحاً عذباً تقول له وهي تودعه: «أرجو من كل قلبي أن تجد أهلك كما تركتهم، لم يتغيروا. أهم من ذلك من أن تكون أنت لم تتغير نحوهم».

آه منك يا زمان النزوح!

دومة ود حامد

لو جئت بلدنا سائحاً، فأغلب الظن يا بنيّ أنك لن تمكث فيها طويلاً، تجيئنا شتاء وقت لقاح النخل، فترى سحابة داكنة ربضت على البلد. ليس هذا يا بنيّ غباراً ولا هو بالضباب الذي يثور بعد وقوع المطر. هذا سرب واحد من أسراب (النمتة) التي تربط على الداخلين إلينا أفواه الطرق. لعلك رأيتَ هذه الآفة من قبل. لكن هذا النوع منها أحلف أنك ما رأيته قط. هاك يا بني هذا الشبكة من «التل» فضعها على رأسك. إنها لن تقيك هذه الشياطين، ولكنها تقويك على احتمالهم. اذكر صاحباً لابني يزامله في المدرسة، استضافه عندنا قبل عام في مثل هذا الوقت. أهله من البندر، بات عندنا ليلة، وأصبح متورم الوجه محموماً مزكوماً. وحلف لا يبيت ليلة أخرى عندنا.

وتجيئنا صيفاً فتجد عندنا ذباب البقر - ذباب ضخم كحملان الخريف، كما نقول بلهجتنا. ومن هذا البلاء أهون

عليك «النمتة» ألف مرة. إنه يا بنيّ ذباب متمرس، يعض ويلسع ويطن ويزن، وعنده حب عظيم لبني آدم، إذا شم رائحتهم لازمهم ملازمة. هش عنك يا بني - قاتل الله «النمتة».

وتجيئنا في وقت ليس صيفاً ولا شتاء، فلا تجد شيئاً. أنت ولا شك يا بني تقرأ الجرائد كل يوم، وتسمع الإذاعات وتزور السينما مرة أو مرتين في الأسبوع. إذا مرضت فمن حقك أن تعالج في المستشفى، وإذا كان لك ابن فمن حقه أن يتعلم في المدرسة. أنا أعرف يا بني أنك تكره الطرقات المظلمة، وتحب أن ترى ضوء الكهرباء يتوهج ليلاً. وأنت لست شغوفاً بالمشي، وركوب الحمير يحدث ندوباً في مقعدك. يا ليت يا بني، يا ليت... الطرقات المرصوفة في المدن. المواصلات الحديثة.. العربات الجميلة المريحة. ليس عندنا من كل هذا شيء... نحن قوم نعيش على الستر.

سترحل عن بلدنا غداً، أنا واثق من ذلك، وحسناً تفعل، مالك ولهذا العناء؟ نحن قوم جلودنا ثخينة، ليست كجلود سائر الناس. لقد اعتدنا هذه الحياة الخشنة، بل نحن في الواقع نحبها، لكننا لا نطلب من أحد أن يجشم نفسه مشقة

الحياة عندنا. سترحل في غد يا بني - إني أعلم ذلك ولكن قبل أن ترحل دعني أريك شيئاً واحداً - قل إننا نعتز به. عندكم في المدن المتاحف - أماكن تحفظ تاريخ القطر والأمجاد السالفة. هذا الشيء الذي أحب أن أريكه، قل إنه متحف. شيء واحد نصرُّ أن يراه زوارنا.

مرة جاءنا واعظ أرسلته إلينا الحكومة ليقيم عندنا شهراً. وحلَّ علينا في موسم لم يرَ ذباب البقر أسمن منه في ذلك الموسم. تورَّم وجه الرجل في اليوم الأول. وتصبر وصلى بنا صلاة العشاء في الليلة الثانية، وحدثنا بعد الصلاة عن مباهج الحياة في الفطرة. وفي اليوم الثالث أصابته حمى الملاريا، وأصابته الدسنتاريا وانسدت عيناه تماماً. زرته في عصر ذلك اليوم فوجدته طريح الفراش، يقف على رأسه غلام يهش عنه الذباب. فقلت له: «يا شيخ، ليس في بلدنا شيء نريكه، ولكني أحب أن ترىٰ دومة ود حامد». ولم يسألني ما دومة ود حامد - وإن كنت أرجح أنه سمع بأمرها، فمَن ذا الذي لم يسمع بها؟ - ولكنه رفع إليّ وجهاً كأنه رئة بقرة ذبيح، وكانت عيناه كما قلت لك مغلقتين، ولكنني كنت أعلم أن وراء أهدابها مرارة. وقال لي: «والله لو كانت دومتكم هذي دومة

الجندل، وكنتم المسلمين تقاتلون مع علي ومعاوية، وكنت أنا حكماً بينكم في يديّ هاتين مصائركم، ما تحركت من مكاني هذا شبراً». وبصق على الأرض كأنه يشتمني وأشاح عني بوجهه. وسمعنا بعدها أن الشيخ أرسل برقية إلى مرسليه يقول لهم فيها: «ذباب البقر أكل رقبتي، والملاريا حرقت جلدي، والدسنتاريا غرست أسنانها في أحشائي. أقيلوا عثرتي يرحمكم الله. هؤلاء قوم لاحاجة لهم بي ولا بواعظ غيري». ورحل الرجل، ولم ترسل لنا الحكومة واعظاً بعده. لكن قريتنا يا بنيّ شهدت والله رجالاً كباراً ذوي حول وطول وأسماء في البلد مثل الطبول، ما ظننا يوماً مجرد ظن أنهم سيأتون إلى هنا ـ جاؤوا والله أفواجاً أفواجاً.

ها قد وصلنا... تصبَّر يا بنيّ ـ ما هي إلا ساعة وتهب نسمة العصر، فتخفف من تكالب هذه الآفة على وجهك.

ها هي ذي... دومة ود حامد. انظر إليها شامخة برأسها إلى السماء. انظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض. انظر إلى جزعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عرف المهر الجامحة. حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلها من هذه الربوة

العالية عبر النهر، فيستظل به الجالس على الضفة الأخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتد ظل الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل إلى المقبرة. أتراها عقاباً خرافياً باسطاً جناحيه على البلد بكل ما فيها؟ قررت الحكومة مرة قطعها عندما أرادوا أن ينظموا مشروعاً زراعياً، وقالوا إن موضع الدومة هذا هو خير موضع لإقامة مكنة الماء. أهل بلدنا كما تراهم منصرفون كل إلى همِّ يومه، ولا أذكر أنهم ثاروا على شيء قط. ولكنهم لما سمعوا بأمر قطع الدومة، هبوا عن آخرهم هبة رجل واحد، وسدوا على مفتش المركز السبل. كان ذلك في عِهد الحكم الأجنبي. وأعانهم الذباب أيضاً، ذباب البقر. وعلا اللغط من حول الرجل يقولون له إذا قطعتم الدومة فإننا سنحارب الحكومة حتى نموت عن آخرنا. وفعل الذباب فعله في وجه الرجل. فشتت أوراقه في الماء وسمعناه يصيح: «خلاص... في دومة... ما فيش مشروع» ولم تأتِ مكنة ماء ولم يأتِ مشروع... ولكن بقيت لنا دومتنا.

هيا بنا يا بنيّ إلى البيت، فليس هذا وقت الحديث خارج البيوت. هذا الوقت قبل المغيب بقليل، وقت يتسع فيه

نشاط جيش «النمتة» قبل أن ينام. وفي هذا الوقت لا يقوى على لسعه إلا من عاشره عشرة طويلة، وثخن جلده مثلنا. انظر إليها يا بنيّ - إلى الدومة - شامخة آنفة متكبرة، كأنها... كأنها صنم قديم. أينما كنت في هذه البلدة تراها... بل إنك لتراها وأنت في رابع بلدة من هنا.

سترحل عن بلدنا غداً، ما في ذلك شك، هذي آثار الجولة الصغيرة التي قمنا بها بادية على وجهك ورقبتك ويديك أيضاً. لكن قبل أن تذهب سأتم لك قصة الدومة، دومة ود حامد. تفضل يا بنيّ. البيت بيتك.

تقول من زِرع الدومة؟

ما من أحد زرعها يا بنيّ. وهل الأرض التي نبتت فيها أرض زراعية؟ ألم ترَ أنها حجرية مسطحة مرتفعة ارتفاعاً بيناً عن ضفة النهر كأنها قاعدة تمثال، والنهر يتلوى تحتها كأنه ثعبان مقدس من آلهة المصريين القديمة؟ لا يا بنيّ، ما من أحد زرعها. اشرب الشاي يا بنيّ، فأنت محتاج إليه بعد المحنة التي تعرضت لها... أغلب الظن أنها نمت وحدها، ولكن ما من أحد يذكر أنه رآها على غير حالتها التي رأيتها عليها الآن. أبناؤنا فتحوا أعينهم فوجدوها تشرف على البلد.

ونحن حين ترتد بنا ذكريات الطفولة إلى الوراء، إلى ذلك الحد الفاصل الذي لا تذكر بعده شيئاً، نجد دومة عملاقة تقف على شط في عقولنا، كل ما بعده طلاسم فكأنها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر ولكنه يسبق طلوع الفجر. أتراك يا بنيّ تتابع ما أقول؟ هل تلمس هذا الشعور الذي أحسه في ذهني ولا أقوى على التعبير عنه؟ كل جيل يجيء يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه. اجلس إلى أهل هذه البلد واستمع إليهم يقصون أحلامهم. يصحو الرجل من نومه فيقص على جاره أنه رأى نفسه في أرض رملية واسعة رملها أبيض كلجين الفضة. مشى فيها فكانت رجلاه تغوصان فيقتلعهما بصعوبة. ومشى ومشى حتى لحقه الظمأ وبلغ منه الجوع، والرمل لا ينتهي عند حد. ثم صعد تلاً، فلما بلغ قمته رأى غابة كثة من الدوم في وسطها دومة ـ دومة طويلة، بقية الدوم بالنسبة إليها كقطيع الماعز بينهن بعير. وانحدر الرجل من التل وبعدها وجد كأن الأرض تطوى له. فما هي إلا خطوة وخطوة وخطوة، حتى وجد نفسه تحت دومة ود حامد. ووجد إناء فيه لبن رغوته معقودة عليه كأنه حلب لساعته،

فشرب منه حتى ارتوى ولم ينقص منه شيء. فيقول له جاره: «أبشر بالفرج بعد الشدة».

وتسمع المرأة منهن تحكي لصاحبتها: «كأنني في مركب سائر في مضيق في البحر، فإذا مددت يدي مسست الشاطئ من كلا الجانبين. وكنت أرى نفسي على قمة موجة هوجاء تحملني حتى أكاد أمس السحاب، ثم تهوي بي في قاع سحيق مظلم. فخفت وأخذت أصرخ وكأن صوتي قد انحبس في حلقي. وفجأة وجدت مجرى الماء يتسع قليلاً. ونظرت فإذا على الشاطئين شجر أسود خال من الورق له شوك ذو رؤوس كأنها رؤوس الصقور. ورأيت الشاطئين ينسدان عليّ وهذا الشجر كأنه يمشي نحوي، فتملكني الذعر وصحت بأعلى صوتي: «يا ود حامد». ونظرت فإذا رجل صبوح الوجه له لحية بيضاء غزيرة قد غطت صدره، رداؤه أبيض ناصع، وفي يده سبحة من الكهرمان. فوضع يده على جبهتي وقال: «لا تخافي». فهدأ روعي. ونظرت فإذا الشاطئ يتسع والماء يسيل هادئاً، ونظرت إلى يميني فإذا حقول قمح ناضجة، وسواقٍ دائرة، وبقر يرعى. ورأيت على الشاطئ دومة ود حامد. ووقف القارب تحت الدومة، وخرج منه الرجل قبلي، فربط

القارب ومد لي يده فأخرجني. ثم ضربني برفق بسبحته على كتفي، والتقط من الأرض دومة وضعها في يدي. والتفت فلم أجده» وتقول لها صاحبتها: «هذا ود حامد... تمرضين مرضاً تشرفين منه على الموت. لكنك تشفين منه. تلزّمك الكرامة لود حامد تحت الدومة».

وهكذا يا بنيّ. ما من رجل أو امرأة. طفل أو شيخ، يحلم في ليلة إلا ويرى دومة ود حامد في موضع ما من حلمه.

تسألني لمَ سميت بدومة ود حامد؟ صبراً يا بنيّ.. هاك كوباً آخر من الشاي.

في أول العهد الوطني جاءنا موظف في الحكومة، وقال لنا إن الحكومة تنوي أن تنشئ لنا محطة تقف عندها الباخرة. وقال لنا إن الحكومة الوطنية تحب أن تساعدنا وتطورنا، وكان متحمساً يتحدث ووجهه متهلل. ونظر فإذا الوجوه التي حوله لا تستجيب لشيء مما يقول. نحن يا بنيّ لا نسافر كثيراً، ولكننا إذا أردنا السفر لأمر مهم - كتسجيل أرض أو النظر في قضية طلاق - فإننا نركب حميرنا ضحى كاملاً، ثم نأخذ الباخرة من المحطة في البلد المجاورة. لقد اعتدنا يا بنيّ على

ذلك، بل نحن من أجل هذا نربي الحمير. فلا غرو أن الموظف لم يرَ على وجوه القوم ما يدل على أنهم سعدوا للنبأ. وفتر حماس الموظف وأسقط في يديه وتلعثم في كلامه. وبعد فترة من الصمت سأله أحدهم: «أين تكون المحطة؟» وقال الموظف إنه لا يوجد غير مكان واحد يصلح محطة ـ عند الدومة. ولو أنك في تلك اللحظة جئت بامرأة وأوقفتها عارية كما ولدتها أمها وسط أولئك الرجال، لما أثرت دهشتهم أكثر مما فعلت تلك الجملة. وسارع أحدهم فقال للموظف: «والباخرة تمر عادة هنا يوم الأربعاء فإذا عملتم محطة هنا فإنها ستقف عندنا عصر الأربعاء». فقال الموظف إن الموعد الذي سيحدد لوقوف الباخرة في محطتهم سيكون في الرابعة بعد الظهر من يوم الأربعاء. فرد عليه الرجل: «لكن هذا هو الوقت الذي نزور فيه ضريح ود حامد عند الدومة، ونأخذ نساءنا وأطفالنا، ونذبح نذورنا ـ نفعل ذلك كل أسبوع». فرد الموظف ضاحكاً: «إذاً غيروا يوم الزيارة». ولو أن ذلك الموظف قال لأولئك الرجال في تلك اللحظة أن كلاً منهم ابن حرام، لما أغضبهم كما أغضبتهم عبارته تلك. فهبوا لتوهم هبة رجل واحد، وعصفوا بالرجل وكادوا يفتكون

به، لولا أني تدخلت فانتزعته من براثنهم، وأركبته حماراً وقلت له انجُ بنفسك. وهكذا ظلت الباخرة لا تقف عندنا. ومانزال إذا حز بنا الأمر وأردنا السفر، نركب حميرنا ضحى كاملاً ونأخذ الباخرة من البلد المجاورة، لكن حسبنا أننا نزور ضريح ود حامد ومعنا نساؤنا وأطفالنا، نذبح نذورنا كل يوم أربعاء، كما فعل آباؤنا وآباء آبائنا من قبلنا.

أمهلني يا بنيّ ريثما أصلي صلاة المغرب... يقولون إن المغرب غريب، إذا لم تدركه في وقته فاتك... «عباد الله الصالحين... أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله».

وي. وي. هذا الظهر يوجعني منذ أسبوع. ماذا تظنه يا بنيّ؟ ولكنني أعرف أنه الكبر... ألا ليت الشباب... كنت في شبابي آكل نصف الخروف في إفطاري وأتعشى بلبن خمس بقرات وأرفع كيس التمر بيد واحدة. وكذاب من قال إنه صارعني فصرعني. كانوا يسمونني «التمساح». مرة عمت النيل أدفع بصدري مركباً موسوقة قمحاً إلى الشاطئ الآخر... ليلاً. وكان على الشاطئ الآخر رجال على

سواقيهم فلما رأوني أدفع المركب نحوهم ألقوا ثيابهم وفزعوا وفروا. فناديتهم: «يا قوم ما لكم قبحكم الله؟ ألا تعرفونني؟ أنا التمساح. أنتم والله الشياطين تخاف من خلقتكم القبيحة».

هل قلت لي يا بني: ماذا نفعل حين نمرض؟.

إنني أضحك لأنني أعلم ما يدور في رأسك... أنتم في البنادر تسارعون إلى المستشفيات لأدنى سبب. إذا جرح أصبع الواحد منكم هرع به إلى «الحكيم»، فلفه في عصابة وعلقه على رقبته أياماً، وهو مع هذا لا يطيب. مرة كنت أعمل في حقلي فعض شيء اصبعي، هذا الاصبع الخنصر. فانتصبتُ قائماً وتلفتّ أبحث عن العشب. فإذا ثعبان لابد. أحلف لك أنه في طول ذراعي هذا. فمسكته من رأسه وسحقته بين اصبعي. ثم عضضت اصبعي الملدوغ ومصصت منه الدم. وأخذت حفنة من التراب فدلكته بها!

بيد أن مثل هذا أمر طفيف. ماذا نفعل في الملمات؟

جارتنا هذه... ذات مرة تورم حلقها فأقعدها طريحة الفراش شهرين. وذات ليلة تكاثرت عليها الحمى، فنهضت

من فراشها سحراً وتحاملت على نفسها حتى أتت. . . أجل يا بني. . . أتت دومة ود حامد. وتروي المرأة ما حدث فتقول: «وقفت تحت الدومة وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف. وناديت بأعلى صوتي: يا ود حامد ـ جئتك مستجيرة وبك لائذة. . سأرقد هنا عند ضريحك، وتحت دومتك، فإما أمتّني وإما أحييتني. ولن أبرح مكاني هذا إلا على إحدى الحالتين». وتستمر المرأة في قصتها فتقول: «وتقلصت على نفسي وأنا أستشعر الخوف،وسرعان ما أخذتني النومة. وبينما أنا بين النائمة واليقظة، إذا أصوات ترتل القرآن، وإذا نور حاد كأنه شفرة السكين قد سطع حتى عقد بين الشاطئين. فرأيت الدومة وقد خرت ساجدة. وهلع قلبي ووجب وجيباً حتى ظننته سيخرج من فمي. ورأيت شيخاً مهيباً أبيض اللحية ناصع الرداء، يتقدم نحوي وعلى وجهه ابتسامة. وضربني بسبحته على رأسي وانتهرني قائلاً: «قومي». وقسماً أنني قمت وما أدري أنني قمت،وجئت إلى بيتي ولا أعلم كيف جئت. ووصلت عند الفجر، فأيقظت زوجي وولدي وبناتي وقلت لزوجي أوقد النار وضع عليها وعاء الشاي. وقلت لبناتي زغردن.

فانكبت علينا البلد. وقسماً ما خفت بعدها ولا مرضت بعدها».

نعم يا بني، نحن قوم لا نعرف دروب المستشفيات. في الأمور الصغيرة، كلدغات العقارب والحمى والفكك والكسر، نلزم الأسرة حتى نشفى. وفي المعضلات نذهب إلى الدومة.

هل أقص عليك يا بني قصة ود حامد؟ أم أنك تريد أن تنام؟ أهل البندر لا ينامون إلا في أخريات الليل - ذلك ما أعلمه عنهم. أما نحن فننام حين يسكن الطير، ويمتنع الذباب عن مشاكسة البقر، وتستقر أوراق الشجر على حال واحد، وتضم الدجاج أجنحتها على صغارها، وترقد الماعز على جنوبها تجتر ما جمعته في يومها من علف. نحن وحيواناتنا سواء بسواء نصحو حين تصحو وننام حين تنام، وأنفاسنا جميعاً تتصاعد بتدبير واحد.

حدثني أبي نقلاً عن جدي قال: «كان ود حامد في الزمن السالف مملوكاً لرجل فاسق، وكان من أولياء الله الصالحين، يتكتم أيمانه ولا يجرؤ على الصلاة جهاراً حتى لا يفتك به سيده الفاسق. ولما ضاق ذرعاً بحياته مع ذلك

الكافر، دعا الله أن ينقذه منه. فهتف به هاتف أن افرش مصلاتك على الماء، فإذا وقفت بك على الشاطئ فانزل. وقفت به المصلاة عند موضع الدومة الآن، وكان مكاناً خراباً. فأقام الرجل وحده يصلي نهاره، فإذا جاء الليل أتاه امرؤ ما بصحاف الطعام، فيأكل ويواصل العبادة حتى يطلع عليه الفجر، كان هذا قبل أن تعمر البلد. وكأنما هذه البلدة بأهلها وسواقيها وعمارها قد انشقت عنها الأرض. كذاب من يقول لك إنه يعرف تاريخ نشأتها. البلاد الأخرى تبدأ صغيرة ثم تكبر. ولكن بلدنا هذا قام دفعة واحدة. أهله لا يزيد عددهم ولا ينتقص، وهيئته لا تتغير. ومنذ كانت بلدتنا، كانت دومة ود حامد. يحكى أن أحداً لا يذكر كيف قامت ونمت، كذلك لا يذكر أحد كيف نمت الدومة في أرض حجرية ترتفع على الشاطئ، وتقوم فوقه كالديدبان».

حين أخذتك لزيارتها، هل تذكر يا بني السور الحديدي حولها وهل تذكر اللوح الرخامي القائم على نصب من الحجر، وقد كتب غليه «دومة ود حامد»؟ وهل تذكر القبة ذات الأهلة المذهبة فوق الضريح؟ هذا هو الشيء الوحيد

الذي وجد على بلدنا منذ أن أنبتها الله. وقصة ذلك كله أقصها عليك الآن.

حين ترحل عنا غداً ـ وأنت لا شك راحل: متورم الوجه، متوهج العينين ـ فأحرى بك يا بني ألا تلعننا، بل ظن بنا خيراً وفكر فيما قصصته عليك الليلة، فلعلك واجد أن زيارتك لنا لم تكن شراً كلها.

أنت تذكر أنه كان لنا قبل أعوام نواب وأحزاب، وضوضاء كبيرة ما كنا نعرف أولها من آخرها. كانت الدروب تسوق إلينا أحياناً غرباء تلقيهم على أبوابنا، كما يلقي موج البحر بالحشائش الغريبة. ما منهم أحد زاد على ليلة واحدة عندنا: ولكنهم كانوا ينقلون إلينا أنباء الضجة الكبيرة في العاصمة. حدثونا يومها أن الحكومة التي طردت الاستعمار قد استبدلت بحكومة أخرى أكثر ضجة ونوابا. وكنا نسألهم: «من الذي غيرها؟ فلا يردون علينا جواباً، ونحن منذ أبينا أن تقوم المحطة عند الدومة، لم يعد يعكر علينا صفونا أحد. وانقضى عامان ونحن لا نعرف شكل الحكومة، سوداء هي أو بيضاء، ورسلها يمرون ببلدنا ولا يقفون فيه، ونحن نحمد الله أنه كفانا مؤونة استقبالهم. حتى كان قبل أربعة أعوام، حين حلت

حكومة جديدة محل الحكومة الاولى - وكأن هذه السلطة الجديدة شاءت أن تشعرنا بوجودها. صحونا ذات يوم فإذا موظف ذو قبعة ضخمة ورأس صغير ومعه جنديان، وهم عند الدومة يقيسون ويحسبون. سألناهم ما الخبر، فقالوا إن الحكومة تريد أن تبني محطة تقف عندها الباخرة تحت الدومة. قلنا لهم: «ولكننا رددنا عليكم ذلك من قبل، فلماذا تظنون أننا سنقبله اليوم؟» قالوا: «الحكومة التي سكتت عنكم كانت حكومة ضعيفة، ولكن الحال قد تغير الآن». ولا أطيل عليك فقد أخذنا بنواصيهم وألقيناهم في الماء، وانصرفنا إلى أعمالنا. وما هو إلا أسبوع حتى أتتنا كوكبة من الجند، وعلى رأسهم ذلك الموظف الصغير الرأس ذو القبعة الكبيرة فنادى بهم أن خذوا هذا وخذوا هذا وخذوا هذا، حتى أخذوا عشرين رجلاً منا كنت أنا بينهم. وحملونا إلى السجن. ومضى علينا شهر. وذات يوم جاء الجند أنفسهم الذين سجنونا ففتحوا علينا الأبواب. وسألناهم ما الخبر. فلم يكلمنا أحد. ولكننا وجدنا حشداً كبيراً خارج السجن - أول ما رأونا هتفوا ونادوا وعانقنا أناس نظيفو الثياب، تلمع على معاصمهم ساعات مذهبة وتفوح نواصيهم برائحة العطر. وحملونا في

موكب كبير إلى أن أتينا أهلنا. فوجدنا خلقاً كبيراً لا أول له ولا آخر، وعربات واقفة وخيولاً وجمالاً. وقال بعضنا لبعض: «إن ضوضاء العاصمة قد وصلت عندنا». وأوقفونا نحن الرجال العشرين صفاً يمر علينا الناس يصافحون أيدينا... رئيس الوزراء... رئيس مجلس النواب... رئيس مجلس الشيوخ... نائب دائرة كذا.. نائب دائرة كذا... ونظر بعضنا إلى بعض دون أن نفهم ما يدور حولنا، إلا أن سواعدنا كلت من طول ما صافحت من أولئك الرؤساء والنواب. ثم أخذونا في حشد عظيم إلى حيث الدومة والضريح. ووضع رئيس الوزراء الحجر الأساسي للنصب الذي رأيته، والقبة التي رأيتها، والسور الذي رأيته. وكما يهب الإعصار برهة ثم يذهب، اختفى ذلك الحشد كما جاء فلم يبت ليلة عندنا... وأحسبه ذباب البقر. فقد كان عامها سميناً بديناً يطن ويزن كالعام الذي جاءنا فيه الواعظ.

وقد روى لنا أحد هؤلاء الغرباء الذين تلقيهم الدروب عندنا قصة تلك الضجة فيما بعد فقال: «لم يكن الناس راضين عن تلك الحكومة منذ أن جاءت، وهم يعلمون أنها لم تأتِ إلا بشراء عدد من النواب. وظلوا يتربصون لها

الفرص. كانت المعارضة تبحث عن شرارة توقد بها النار. فلما حدث حادث الدومة معكم وأخذوكم فألقوا بكم في السجن، نشرت الصحف النبأ، وخطب رئيس الحكومة المقالة في البرلمان خطبة نارية قال فيها: «لقد بلغ من طغيان هذه الحكومة أنها أصبحت تتدخل في معتقدات الناس، في أقدس الأشياء المقدسة عندهم». ووقف الخطيب وقفة ذات أثر، ثم قال وصوته يتهدج بالعاطفة: «اسألوا رئيس وزرائنا الموقر عن دومة ود حامد. اسألوه كيف أباح لنفسه أن يرسل جنده وأعوانه فيدنسوا ذلك المكان الطاهر المقدس؟» وحمل الناس الصيحة. واستجابت أفئدة الناس في سائر القطر لحادث الدومة كما لم تستجب لحادث من قبل. لعل السبب أن في كل بلد من بلدان هذا القطر علماً كدومة ود حامد، يراه الناس في أحلامهم. وبعد شهر من الضوضاء والصراخ والشعور الملتهب، اضطر خمسون من نواب الحكومة أن يسحبوا تأييدهم منها. فقد أنذرتهم دوائرهم أنهم إما أن يعلنوا ذلك، وإلا فهذه الدوائر التي انتخبتهم تنفض أيديها منهم. وهكذا سقطت الحكومة وعادت الحكومة الأولى إلى

الحكم، وكتبت الصحيفة الأولى في القطر تقول: «إن دومة ود حامد أصبحت رمزاً ليقظة الشعب».

ومن يومها ونحن لا نحس للحكومة الجديدة وجوداً. من يومها لم يزرنا أحد من القوم الكبار العمالقة الذين زارونا. وحمدنا الله أنه كفانا مشقة مصافحتهم. عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى، لا مكنة ماء، ولا مشروع زراعة، ولا محطة باخرة. وبقيت لنا دومتنا تلقي ظلها على الشاطئ القبلي عصراً، ويمتد ظلها وقت الضحى فوق الحقول والبيوت حتى يصل إلى المقبرة. والنهر يجري تحتها كأنه أفعى مقدسة من أفاعي الأساطير. بيد أن بلدنا قد زاد نصباً رخامياً وسوراً حديدياً وقبة ذات أهلة مذهبة.

ولما فرغ الرجل من كلامه، نظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة غامضة ترفرف على جانبي فمه كضوء المصباح الخافت. فقلت له: «ومتى تقيمون طلمبة الماء والمشروع الزراعي ومحطة الباخرة؟» فأطرق برهة ثم أجابني: «حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم». قلت له: «ومتى يكون هذا؟» فقال: «ذكرت لك أن ابني في البندر يدرس في مدرسة. إنني لم ألحقه بها. ولكنه هرب. سعى إليها بنفسه.

إنني أدعو أن يبقى حيث هو فلا يعود. حين يتخرج ابن ابني من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان الغرباء الروح، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي... لعل الباخرة حينئذ تقف عندنا... تحت دومة ود حامد».

فقلت له: «وهل تظن أن الدومة ستقطع يوماً؟» فنظر إليّ ملياً، وكأنه يريد أن ينقل إليّ خلال عينيه المتعبتين الباهتتين ما لا تقوى على نقله الكلمات: «لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة. ليس ثمة داع لإزالة الضريح. الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعاً أَن المكان يتسع لكل هذه الأشياء ـ يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة». وبعد أن صمت برهة نظر إليّ نظرة لا أدري كيف أصفها، ولكنها أثارت في نفسي شعوراً بالحزن ـ الحزن على أمر مبهم لم أستطع تحديده ـ ثم قال: «أنت لا شك راحل عنا غداً. فإذا وصلت إل حيث تقصد، فاذكرنا بالخير ولا تقسُ في حكمك علينا».

... إذا جاءت

«المكتب العالمي لفنون السياحة».

هكذا بكل بساطة قررت لافتة طولها ثلاثة أمتار، وعرضها متران، في إطار أصغر، لوحتها من خشب البلوط مدهون بطلاء أزرق، حروف ضخمة بالثلث، مذهبة، معلقة على مبنى عتيق، في الدور الثالث في عمارة متداعية.

أول فكرة خطرت في ذهن أمين ذلك الصباح، عبر عنها بصوت مرتفع: «إنه لا يؤمن بتخزين الأفكار». قال وهو ينظر إلى سقف المكتب: «أنا لا أؤمن بالابتذال في الإعلان. المكتب العالمي لفنون السياحة؟ هل نحن أصحاب كباريه؟ هل نحن نبيع العيني؟»٠

وخطر له وهو يتحدث أن سقف المكتب لا يمانع في طبقة جديدة من طلاء أكثر بهجة. ورفعت سناء أهداب عينيها الطويلة في بطء متعمد. الذي لا يعرفها يحسب أنها تدبر

إغراء زميلها. «أمين. أنت من هؤلاء المعتوهين الذين ينشدون الكمال في كل شيء». ولأول مرة ذلك الصباح، نظر أمين إليها، نظرة مركزة حاول أن يبالغ في حدتها. سناء فتاة ليست من نوعه. إنها فتاة رخوة: أبوها مدير شركة، رسبت في امتحان السنة الثانية في الجامعة ثلاث مرات، وتركتها بمحض إرادتها. لو أرادت البقاء لبقيت. تأتي للمكتب في سيارة فوكسهول موديل ٤٩، وتبدو أصغر من سنها. السيارة تبدو أصغر من سنها. قال أمين وقد شعر بألم في جفنه للمجهود الذي بذله في تركيز نظرته. «حين نبالغ في الدعاية لسلعة، يشعر الناس نحوها بشك تلقائي. يصح أن نسمي هذا جهاز الوقاية. العقل الباطن يحمي المستهلك من الوقوع في مأزق. أمين قرأ نتفاً من فرويد، ويروق له أن يزج «العقل الباطن» في ثغرات الحديث.

وبحركة لا إرادية لمست سناء القرطين الطويلين المتدلين من أذنيها كل منهما على شكل هلال، يتدلى بسلسلة فضية من أذنها. (ترى هل أمين يغمزها؟) إنها تبالغ في صبغ وجهها بالبودرة وشفتيها بالأحمر، وعطرها قوي لا مفر منه. فساتينها من حرير تحدث حفحفة جافة مثيرة حين تمشي.

صوت يابس أملس يشعرك بامتلاء جسدها. وخطر لأمين أن في سناء شيئاً. هي ليست من نوعه، ولعلها تميل إلى الابتذال. لكن شيئاً فيها يجذبه. وفتح فمه ليتحدث، فدخل بهاء وظل فمه مفتوحاً. وقال بهاء بقسوة مرحة: «ما لك فاغراً فاك هكذا كالأبله؟ هل باغتّك متلبساً بغزل سناء؟». وضحكت سناء ووقفت. ثم وجدت أن لا داعي للوقوف فجلست. وخطر لأمين أن بهاء شاب مغرور. (ماذا يحسب نفسه؟) ولم تسعفه الذاكرة باسم ممثل من هوليود يشتمه به، فانقطع حبل الفكرة في ذهنه.

جلس بهاء على مكتبه، ونفخ على سطحه الزجاجي. لم يكن على المكتب غبار. ولكن بهاء يفعل ذلك كل صباح، كأنه يحشد طاقته للعمل وضع حقيبته الجلدية على المكتب. ضربها بحنان على جنبها. ثم فتحها وأخرج منها دفاتر وأوراقاً وكتيبات سياحية نثرها على المكتب: «مررت في طريقي على وكالة كوكس. أعطوني هذه الكتيبات. أهم من ذلك أنني أغويت فتاة سويدية فرضيت أن تقابلني الليلة». تنحنحت سناء تلقائياً: «لا بد لي أن أتعلم كيف أسيطر على انفعالاتي».

فترة صمت.

وقال أمين: «هارودز».

وقالت سناء: «ماذا؟».

ولم يقل بهاء شيئاً.

وقال أمين: «هارودز. اتش. اي. آر. آر. او. دي. اس. متجر في لندن. كم أتوق إل السفر إلى لندن وشراء سترة صوفية من هارودز».

وقال بهاء: «ما شاء الله». ثم قام من مكانه وأدار آلة تكييف الهواء، فامتلأت الغرفة الصغيرة الرثة بأزيز مكتوم، وارتعشت أطراف الأوراق ارتعاشاً خفيفاً. آلة تكييف الهواء، وتلفون جديد أخضر، ورف لامع أبوابه من الزجاج، مملوء بكتب كأنها لقطاء اجتمعوا في ملجأ أيتام. مثلاً: «الجزء السابع من دائرة المعارف البريطانية». «المستطرف من كل فن مستظرف». كتاب عن «القانون الدولي» لمؤلف اسمه ليلينثال. «كيف تتعلم الاسبانيةِ في سبعة أيام دون معلم». «رحلات ابن بطوطة». ومن تظن كانت تحاكك الركاب مع شيخنا الرحالة؟ «لو كريشيا بورجيا». ثم الجزء الأول من دليل التلفون، الأسماء بين ألف وجيم. وفي ركن مهجور اختلت «امرأة من

روما» بمصطفى صادق الرافعي. وأعجب من ذلك أن «رندلى» سعيد عقل و«مسز ورن» صاحبة برنارد شو، لم يجد إثماً في ان يناما جنباً إلى جنب. (ما أضيع الأيتام على مواطد اللئام).

لم يجد أمين ما يفعل، فنظر أمامه. وقع نظره على الجزء الأسفل من جسم سناء خلال فرجة المكتبة. كانت تجلس قبالته ارتعش قليلاً حين رفعت ساقها اليمنى ووضعتها فوق ساقها اليسرى. حوّل أمين بصره إلى خريطة كبيرة للعالم، معلقة على الجدار لكنه لم يستطع مقاومة الإغراء، فأدار طرفه ببطء كأنه يقود سيارة بحذر في طريق جبلي. ونظر. أحس بقرصة صغيرة بين كتفه. وتابع ثنية الفخذ من عند الركبة إلى حيث تاه في طيات الرداء. أحس في أنفه برائحة الطين المبتل. ثم خطر له خاطر غريب. فخذها أبيض وذراعاها محمرتان ونحرها أسمر.

تمطت سناء في تراخٍ مليء بالإيحاء. ونظرت إلى أمين، وانفرجت شفتاها دون أن تبتسم. وقال أمين في سره: «إنها مبتذلة. أغلب الظن أنها سهلة المنال. فتاة بلهاء، سريعة التأثر، تقرأ القصص الأوروبية وتحاول أن تحياها. لا يستبعد أنها قرأت في الليلة الماضية «عشيق الليدي تشاترلي» ثم

خرجت تبحث عن حارس غابة!».

أمين قسا في حكمه عليها. ففي تلك اللحظة كان بهاء يقول لنفسه: «لماذا تحاول هذه الفتاة أن توهم الناس بأنها رخيصة؟» تذكر ليلة أخطأ في حكمه عليها فظنها رخيصة طلب منها أن تتعشى معه فقبلت بحماسة. (البرق يلمع أولاً، ثم يهطل المطر). تعشيا في مطعم عشاء ما كانَ ألذ مذاقه وما كان أخف وقعه على القلب، بين ضحك منها وسحر منه، وطيف أيروس يرف عليهما. أخذ وعطاء. (أول الغيث قطر). ثم خرجا للنزهة في سيارة استعارها من صديق. (في التأني السلامة. وبعض البروق لمعها خلب). سارا في طريق يحاذي البحر، هادئ تقل فيه الحركة، ظلام مثل المخمل ناعم كثيف، والموج يفعل فعله في الشاطئ، ونجمة بعيدة تغمز في السماء. (هذا زمان الشد فاشتدي زيم). وفقد بهاء سيطرته على صوته وهو يقول: «أحب الظلام، والمطر،والصحراء. موسمي المفضل هو الشتاء. الربيع أمقته، الربيع فصل مقيت». صدق الذي قال: «ايلول للفم فمدّ لي زندك. هل أخبروا أمي أني هنا عندك؟» وفكرت سناء، «محاولة حسنة، من رجل ليست فيه قطرة من شاعرية».

لم يفهم بهاء شيئاً أول الأمر. لماذا لا تستجيب؟ ما بالها تجلس هكذا في وقار بعيداً عنه؟ (بعض البروق لمعها خلب). ومد يده فلمس يدها. لم تفعل شيئاً. لم تسحب يدها. لم تصرخ فيه. لم تقترب منه. تركت يدها حيث هي، ميتة فاقدة الحياة. وكأنها بوسيلة غامضة قد فصلتها عن جسمها. كأن اليد لم تعد جزءاً منها. ظل بهاء كذلك، يقود السيارة بيد، ويحاول باليد الأخرى أن ينفخ الحياة في يد ميتة لا حياة فيها. ثم أحس بغباء وحرج، أحس أنه سخيف، فاستعاد يده من على يدها، وقال لها: «هل نعود أدراجنا؟» فقالت: «من الأفضل». فكر وهو يدخل في فراشه: «كانت ليلة فاشلة. لكنها تجربة. في المستقبل سأتريث. سأبتعد عن الفتيات الداعرات الظاهر، العفيفات الباطن. لا يرجى منهن خير...» ومن أين لأمين أن يفهم سر الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على شفتي بهاء؟

تذكر أمين أنه كان يتحدث عن هارودز، فتنحنح وقال: «هارودز». كان بهاء يكتب شيئاً. توقف عن الكتابة. وضع قلمه. نظر إلى أمين مقدار خمس ثوانٍ وسأله بصوت لا يخلو من ضجر: «يا سيدي ماله هارودز؟»

ورفع بهاء صوته: «نعم. أعرف هذا. متجر في لندن في حي اسمه نايتسبردج. أنا أيضاً قرأت عن لندن. لكن ما هي المناسبة؟»

ورفع أمين صوته أيضاً: «المناسبة أنني لا أحب اسم هذه الوكالة. اسم مبتذل. أنا أؤمن بالإعلان الهادئ. الدعاية الذكية التي تحترم إدراك الزبون. الدعاية في هارودز مثلاً. . .»

وقال بها: «ياسيدي هارودز شيء ونحن شيء. وعلى أي حال نحن لم نختر الاسم لنرضي نقاد الأدب. اسم والسلام. ماذا في الاسم؟».

أمين لم يقتنع. لكنه سكت. (حتماً بهاء مغرور. فيه حب التسلط واضطهاد الغير. لا بد أن أباه قسا عليه في صغره. من أباح له أن ينصب نفسه مديراً للشركة؟ من يظن نفسه؟ يأمر وينهي ويوقع على المكاتبات، والحساب في البنك باسمه هو). هذه الثورة هدأت في قلب أمين، حين تذكر أن الشركة العالمية لفنون السياحة، في طول الشهر الذي مضى من عمرها، لم يكتب لها أحد، وإن فتح الحساب في

البنك لم يتعدَّ كونه تعبيراً عن الأمل الوطيد في المستقبل، من جانب أصحاب الشركة، وإعراباً عن حسن النية تجاههم من جانب البنك، وأن. . . وفجأة حدث شيء. شيء حول المكتب الكالح الجدران، والبساط الرث، وجهاز تكييف الهواء، وملجأ الكتب اللقيطة، حولها في برهة متألقة خارج حدود الزمن، إلى شيء متكامل، له معنى وهدف. فجأة بدا كما لو أن الحياة ما تزال بخير، وأن البروق ليست جميعها تكذب، وأن الآمال، منها ما يترعرع ويزهر وينضج ويثمر. . . دق جرس التلفون. قفزت سناء، اتسعت فتحة فم أمين، امتدت يد بهاء في قوة رمزية مصممة، ترمز إلى عزم جيل بأسره أن يشق لنفسه طريقاً طريفاً حافلاً، يعتقد في قمم تضل فيها العين. امتدت يد بهاء فالتقطت سماعة التلفون. تنحنح بهاء، ولمس شعر رأسه في حركة سريعة قوية، ومن غور بعيد في جوف صدره، أخرج صوتاً هادئاً رزيناً، فيه توثب، وفيه استعداد للتفاهم. لم يكن صوته المألوف، لا، بل هذا هو الصوت الآخر الذي يغري به النجاح. «هالو. المكتب العالمي لفنون السياحة. . . ماذا؟ تريد من؟» ثم، كالثعبان الذي يجمع جسده ويطويه في الحجر، ضاع الصوت

الهادئ الرزين ضاع التوثب. ضاع الاستعداد للتفاهم. لم يعد ثمة نجاح يغري به. وخرج من سقف حلق بهاء صوت أعجف، نحيل، حاد النبرات، هو الصوت الذي ينادي به الخادمة في البيت، ويعارك به أمه إذا أبت أن تقرضه مالاً، ويودع به الفتيات في أواخر لياليه الفاشلة. بذلك الصوت قال بهاء للآلة الخضراء على مقربة من شفتيه: «يا سيدي هذا ليس المطار. هذا، المكتب، العالمي، لفنون السياحة».

(آه منك يا لمع السراب!).

تعلق بصر سناء بذبابة تدب على الحائط، وتابعت بإحساس متبلد رحلة الذبابة في طريق عسير وعر، فيه جبال وأودية وسهول مصغرة، وحفر تزل القدم فيها على حين غرة، ومنعطفات لم تخطر على بال الذبابة من قبل. وكما يحدث لسناء أحياناً، استيقظت من سباتها فجأة، كأن إنساناً شك إبرة في ذراعها، أو كأن ماء بارداً هطل على رأسها دفعة واحدة. وأحست في تلك اللحظة من يقظة الروح، برابطة غريبة تربطها بتلك الذبابة الدائبة السير. (لماذا لا تطير؟ هل قص أحد جناحها؟) كانت الذبابة تكبر في عينيها أحياناً، وأحياناً تتضاءل. مرة تسير خبباً، مرة تتثاقل خطاها

وأحياناً يخيل لسناء أنها وقفت تلهث، وتجفف العرق من وجهها. ويقوم في وجه الذبابة، بغتة، نتوء بارز في الحائط، جبل غرسته الأقدار في سبيلها، فتدور حوله، وتتحايل عليه، وترفع رجلها كأنها تريد أن تصعد فيه، فتقع على جنبها، فتقف برهة ساكنة تمتحن الجبل، ثم تواصل السعي. (لماذا لا تطير؟ هل قص أحد جناحها؟) في ذلك الزمن والمكان، ارتبطت «حقيقة» فتاة اسمها سناء، «بحقيقة» ذبابة ليس لها اسم.

أوقف بهاء جهاز تكييف الهواء، فسقطت الذبابة. ولو سألت سناء في تلك اللحظة، لأقسمت لك أنها سمعت صرخة حادة مبهمة، وسمعت ارتطام جسم ثقيل بسائل مشلشل كأنه ماء بحر!

وقال أمين وهو يحدق في هوة بعيدة القرار، وكأنه يخاطب «كما» مجهولاً هو المسؤول عن كل ما حدث: «المكتب العالمي لفنون السياحة. أي نعم، لفنون السياحة. فتح أبوابه منذ شهر. فهل استفاد أحد من خدماته؟ أبداً. في مكان ما، أدار شخص ما قرص التلفون، وفي نيته أن ينتهي صوته إلى غاية محددة، فانهى صوته عندنا. لماذا؟».

وكان أحد قد طرق الباب، فلبته سناء، فإذا صبي كحيل العينين يحمل آلات في حقيبته.

«جئت لأصلح دورة المياه».

بعد ذلك مرت الدقائق في صخب.

مضى بهاء يقرأ عن بلجيكا، في أحد الكتيبات التي جاء بها من كوكس وعبر بذهنه طائف سعيد، شفاف مثل جناح الفراشة، فقد تراءت له الفتاة السويدية، ولم يكد يصدق أنها بالفعل ستملأ ليلته تلك بأسنانها التي تحاكي اللؤلؤ. ونظر إلى ساعته.

أسبل أمين جفنيه ونظر في استرخاء إلى رقعة العالم الممتدة أمامه على الحائط. وبدت له دنيا عجباً مزرقة مخضرة محمرة. (آه لو طوفت بهذه الدنيا الفسيحة). مرأى الخرائط، وجود المطارات، ورائحة الصيدليات، هذه الأشياء تثير في قلبه شعوراً من فصيلة واحدة. شعوراً بالحنين لا يبدي كنهه. وتذكر كيف ولد المكتب العالمي لفنون السياحة. كان يقرأ كيف عاش هنري ديفد ثورو في ولدن مكتفياً بذاته. وفجأة لسبب لا يدريه أحس في قلبه ذلك الشعور المعين، ذلك

الحنين العجيب. تحولت سطور الكتاب أمام عينيه إلى خرائط واسعة مصقولة، دنى فسيحة مزرقة مخضرة محمرة. وسمع أزيز ألوف الطائرات تهبط وتصعد في فيافٍ من الاسفلت. وشمّ، نعم، شمّ رائحة عطور وعقاقير وأدوية وقوارير رشيقة ملفوفة في أوراق ملونة، تمتد وتورق وتزهر وتفوح في صيدليات لا يحصرها الحصر. من هذا العالم الصافي العطر الرافل، نبتت فكرة. قامت من حينها كاملة ناضجة فتية.

«ننشئ شركة للسياحة».

كان قد اجتاز الامتحان النهائي قبل يومين، وحصل على ليسانس التجارة. (العمل الحر يا بنيّ، العمل الحر. البحر في حاجة إلى سباح، والدنيا هنالك وراء الأفق تنتظر أن تبنى). وقفز من مقعده، فإذا هو عند بهاء في داره. زميله في الصف، شريكه في المخازي، غريمه في المغامرات، لا بل أخوه وخدن نفسه، ومع ذلك فقد كانا جد مختلفين.

استقبل بهاء الفكرة دون حماس. ولكن قليلاً قليلاً، أخذت معالمها تتضح في ذهنه، أخذت جزئياتها تتفاعل وتتداخل وتفترق وتجتمع، فإذا ثمة أفواج زمر زمر كأنها الحجيج من أطراف الأرض، وإذا لهجات ولغات وأزياء،

قبعات وطرابيش وبنادق، ووحوش مكشرة أنيابها في أدغال وأحراش، أموال عملات، أشكالاً ألواناً، دولارات وسترليني وفرنكات وماركات وليرات. رأى مكتباً عريقاً أنيقاً كأنه كعبة الحجيج في وسط غمام أبيض منقوش كالقطن؛ صبايا حسان مبتسمات الثغور، ونساء ملتفات الأجسام، ثغور ونحور وأعجاز ونهود، نساء شقر ملايين ظامئات للحب، يحمن حول بدر في سمائه يدور في أفلاك خارج حدود الكون. . . بهاء.

ضرب بقبضة يده، وعلى جبينه نزيف الرؤيا، وقال وكأنه يتحدى الحياة نفسها، كأنه يخاطب الأقدار ذاتها: «المكتب العالمي لفنون السياحة».

لم يسمع أمين شيئاً، فقد كان هو الآخر تائهاً في دنيا لم يسمع بها أنس ولا جن. ولكن انتفاض المنضدة حمل إليه الخبر، إن الأمر قد أُبرم.

هذا كان قبل شهر. ثم أفلت الأمر من يديه، وأصبحت القسمة قسمة غير عادلة. أصر بهاء على القسم، وعلى إنفاق رأس المال كله في شراء جهازِ تكييف الهواء، والتلفون الأخضر، وخزانة الكتب ذات الأبواب الزجاجية. أصر على

كتابة العقد بخط يده، العقد الذي يعطيه ستين بالمئة من أسهم الشركة، مع أن ثلثي رأس المال ساهمت به سناء، وفي العقد بند يذكر شيئاً عن «أعباء الإدارة».

فتحت سناء درج مكتبها ثم أغلقته، ونبشت في أوراق بين يديها، ونقبت في حقيبتها، ثم نسيت عمَّ تنقب، فكفت، ووضعت يدها على خدها وتأوهت. وفي لحظة مشحونة بالألم أحست سناء بوطأة العيش.

لو أن الموت زارها في تلك اللمحة القصيرة من عمرها لابتسمت له. أحست بنفسها ممثلة في مهزلة، نعم، مهزلة ضالة في متاهة دون هدف. دون هدف. دون هدف. سمعت أهلها ضجة ضخمة في بيت كبير، وشمت رائحة الثوم. في تلك الليلة الظلماء على شاطئ البحر، حين لمس بهاء يدها شعرت بالرضا. لمس بهاء يدها فارتعش أبطالها. هل هي تحب بهاء؟ لعلها تحب بهاء. وصوبت نظرة يائسة نحوه.

الصبي الكحيل العينين فرغ من إصلاح دورة المياه، وخرج والآلات الحديدية تصلصل في حقيبته. خرج دون أن ينظر إلى الأشباح الثلاثة الجالسين هناك. لم يودعهم. وقبل أن يصل إلى الباب التفت نحوهم مذعوراً، فقد قفزت سناء

كأن شيطاناً أصابها، صارخة صرخة بعيدة الغور. انتفض المكتب العالمي لفنون السياحة وارتج. امتلأ بصخب وهرج، تلاطمت حيطانه، تأوهت منافذه، تناثرت أوراقه ثم اتضح أن المذنب صرصار سقط على رأس سناء من الحائط. هدأت سناء من ثورة نفسها، وهي تحس بالخجل والتبرم والسخط. وجلست صامتة يهبط صدرها ويعلو، وفي طويتها شعور بالقلق يغور ويغطس ويطفو ويتمطى ويتقلص ويمتد، شيء لا بد من التعبير عنه. وفجأة تبلورت الفكرة في ذهنها، كما لو كان سقوط الصرصار على أم رأسها، برقاً لمع في ديجور دنياها فأنار لها الطريق. وانتصبت واقفة كأنها مدفوعة بقوة خارجة عنها. وجمعت أصابعها على حقيبتها بعزم. (البروق لا تلمع فرادى. البروق تومض ومضات متتابعات، جماعات جماعات). وسمعت نفسها تقول: «مهزلة. هذه الشركة مهزلة. لن أعود غداً. سأعود إلى الجامعة. سأتأكد هذه المرة من النجاح».

«طاخ».

الأشباح الثلاثة جفلت دفعة واحدة. (البروق لا تلمع فرادى) رعد قصف وفرقع في ضوضاء طغت على طنين

أفكارهم جميعاً، وحطمت التوتر المسرحي الهائل الذي خلقته سناء بتصريحها الرهيب. وتطاولت أعناقهم جميعاً من خلال النافذة نحو مصدر الصوت في قرار الشارع. وانتفض وجه سناء بغتة، وضاقت حدقتا عينيها، ثم غطت وجهها بيديها وجلست، وظل جسمها كله بما فيه من ثنيات ونتوءات وتعاريج، يهتز بضحك، جارفاً مبحوحاً متشنجاً، وهو خليط من نداء الديك للفجر، وبكاء الأم الثكلى، ونهيق الحمار وتأوه الأنثى في ساعة الخلق. ابتسم أمين، وعاد بهاء في صمت فجلس في مكانه. وقال أمين وابتسامته تزيد اتساعاً: «يا لها من نهاية. هناك في الشارع، في تلك البئر السحيقة يرقد جثمان. . .» ـ وهنا ضغط على الكلمات باشمئزاز واضح «. . . المكتب العالمي لفنون السياحة. اسم مبتذل، مكتوب بحروف مذهبة، في لافتة سمجة، ترقد هناك في الشارع».

وقامت سناء وخرجت، وما يزال يعلق بجسمها اللدن بقايا ضحك. وتتبّعها أمين بنظرات فيها جوع، ثم لحق هو أيضاً بنظراته.

ظل بهاء جالساً. لم يكُ على وجهه غضب ولا اضطراب ولا قلق. لا، بل كان طائف من الرضا، نعم،

الرضا، يرف على أركان فمه، فقد كان يفكر في حسناء سويدية، ستضيء ظلام ليله ذاك بأسنانها التي تحاكي حبات اللؤلؤ. ونظر إل ساعته ثم قال بصوت مرتفع أرهفت له الحيطان الرثة، والتلفون الأخضر والسجاد الذي شهد أياماً أكثر رخاء من تلك، والكتب اللقيطة في مأواها الزجاجي، وجهاز تكييف الهواء: «إذا جاءت».

هكذا يا سادتي

هذه الفتاة لم تبتسم لي؟ ألأنني أجنبي؟ أم لأن أنفها كبير وفمها واسع وعيناها زرقاوان؟ أهل هذا البلد يحبون المرأة دقيقة الأنف، صغيرة الفم، دعجاء العينين. واضح هذا من تحلقهم حول تينك المرأتين.

كانت الفتاة كأنها تقف على الشاطئ الآخر. بيني وبينها بحر من الأمور التافهة. أول ما دخلت القاعة وقعت عيني على فمها الواسع، رأيت جفنها يرتعش قليلاً. لعلها فهمت. وجاءت ربة البيت ووضعت ذراعها الممتلئ الأملس في ذراعي وساقتني في غمامة من العطر إلى الباقين. لم تفرغ من نطق اسمي حتى افترت ثغور النساء، مرة واحدة، ومد الرجال أيديهم. كأنهم كانوا ينتظرون قدومي من زمان طويل. كأنهم دربوا أنفسهم، واستعدوا للقياي كما يستعد الممثل لمقابلة الجمهور أول مساء. أنا الجمهور. من هم إذاً؟

«بلدنا يرحب بك».

«أهلاً وسهلاً شرفت».

«نحن جميعاً تحت أمرك».

«تكرم عينك».

«ألا تعتقد أن بلدنا أجمل بلد على وجه الأرض؟».

كيف أجيب على سؤال كهذا؟ لم أجد مفراً من أن أحول بصري عن صدر المرأة، وألقيه على الجبل. صحيح، هو بلد لا يخلو من حسن. الجبل متوهج السفوح، والبحر عند قدميه هادئ شفاف. في أول الليل. هذا صحيح. أما أن هذا البلد هوأجمل بلد على وجه الأرض...

«صدقت يا سيدتي. بلدكم روعة. لم أكد أصدق عيني. حين حلقت الطائرة فوق شعلة النور هذه، حسبت أنني في حلم. وما أزال أعتقد أنني في حلم».

وفهمت المرأة ما أعني، فحمّرت خديها حمرة خفيفة علامة الخجل. أقسم أنها دفعت الدم إلى خديها بتعمد وإرادة، كأنها تسيطر على شرايينه ومنافذه ومصباته. وتذكرت الفم الواسع فالتفت بعيني دون أن أحول وجهي عن محدثتي. ما تزال تنظر إليّ. هل هي أجنبية مثلي؟ والتفتت محدثتي بطرف عينها أيضاً إلى حيث وقع نظري ولما نظرت إليّ كان

على وجهها طيف مرح، كأنها تقول لي: «فهمت» هذه المرأة يجب أن أحسب حسابها، سيكون المساء بيني وبينها ساحة حرب صامتة، فإما هزمتني وإما نجوت. هذه الساعة التي تتكتك في جمجمتي، ليتني أستطيع شلها. إذاً لاستمتعت بالسهرة. إذاً لضحكت وغازلت ونافقت، وأي ضرر؟ لكنني أعلم أنها ستظل تدور. سأفكر ليتني أعطل فكري هذه الليلة، فأنا متعب وهؤلاء القوم عندهم استعداد، وأريد أن أنام كالطفل. هذا لن يحدث. شيء في داخلي سيقف بمعزل، يراقبني ويراقب الناس. هذا الصوت الصغير، سيظل يهمس من داخلي: «خطأ»، «لا تفعل هذا»، «سخيف سيوعز إليّ بأن أضحك في الموقف الذي تكفي فيه هزة الرأس. سيدفعني إلى زم شفتي في عناد، في الموضوع الذي يحسن فيه الضحك. وهذا الطيف الساخر في عيني ماذا أفعل به؟ سيسمع الناس صوتاً لا يخلو من عذوبة يقول كلاماً معسولاً وقبل أن يقع الكلام حيث أريد له أن يقع، ينظرون إلى الطيف الساخر في عيني، يكذب كل ما قلت. وضع معقد. لكنني هذه الليلة سأمحو الطيف الساخر، بأي وسيلة. سأشرب إذا استدعى الأمر».

«ويسكي؟».

«لا. أشكرك. عصير برتقال».

ونظر إليّ رب البيت مستغرباً، نظرة شملتني من رأسي إلى قدمي.

«انت عشت وقتاً طويلاً في إنكلترا، أليس كذلك؟».

«بلى».

«ومع ذلك لا تشرب؟».

«لا عن ورع، ولكنني ذقت الشراب فلم يرقني. سأشرب هذه الليلة إذا استدعى الأمر».

وتلفت الرجل حوله كمن يبحث عن معين. وكانت المرأة قد أدارت لنا ظهرها. كانت تضاحك فتاة مسبلة الشعر، على عينيها نظارة. لكن ظهرها كان معي. أقسم أن ظهرها كان يقول لي كلاماً. تحولت نحونا فجأة، وقال زوجها:

«هذا الرجل لا يشرب».

وجحظت عينا المرأة كأن زوجها قال لها: «هذا الرجل هارب من السجن».

«ماذا؟».

«سأشرب هذه الليلة إذا استدعى الأمر».

«تشرب الآن وإلا صحت بأعلى صوتي، وجمعت عليك الناس».

وأخذت الكأس من يدها، وقد أغوتني عيناها. عيناها خضراوان محاطتان بزرقة كالبقع الضحلة في البحر، وانساناهما واسعان إما بفعل الشراب، وإما للمجهود العظيم الذي تبذله المرأة لهزيمتي. ما شأنها بي، هذه المرأة؟ واضح أنها قررت أن تهزمني هذه الليلة، لكن لماذا؟ في سنوات مراهقتي، أثرت النيران في جوفي بأحلام عن هذه المرأة. في مطلع شبابي، علمتني الحب واحدة كهذه المرأة. امرأة في نحو الأربعين. امرأة. وجه حي، وصدر صلب شرس، وكفل كبير ناتئ. صرخة بدائية هذه المرأة. تخون زوجها، ما في ذلك شك، وتنام الليل بجواره لا يقلقها شعور بالإثم. لو أنني الآن تركت نفسي على سجيتها، لهزمتني دون كبير جهد، لكنني لن أستسلم، بأي حال من الأحوال، لن أستسلم.

أحلف لكم أنها قرأت ما دار في ذهني، فضحكت، وقالت: «لا تخف مني. إنني لا أعض».

تحسست بطرف لساني السائل الأصفر، وحاولت أن أحدد لذهني طعمه. (ذهني يطلب مني أن أحدد له كل

شيء). لكنني لم أستطع. وتذكرت طعماً آخر، إحساساً آخر، حاولت كثيراً أن أحدده لذهني فلم أستطع. بعض الأمور لا يمكن وصفها، ولعل إغراق بعض الناس فيها نوع من المثابرة.

«لسانك لونه قرمزي، كأن في فمك غروب شمس».

وهنا، هنا، يا سادتي، أحلف لكم أنني كدت أنهزم، ضربة واحدة مفاجئة، أتتني من حيث لا أحتسب. أعددت لكل شيء عدته، أغلقت كل الثغرات، رسمت الخطط، وعززت خطوط دفاعي. جبهتي السمراء، شعري المجعد، عيناي الطويلتا الأهداب. اما لساني، فهذا لم يخطر لي على بال، واما إن في فمي غروب شمس! وتراجعت من هول الضربة فضحكت، وضحكت محدثتي،وهي تتعمد إبراز أسنانها المنتظمة العاجية، ومدت لي لسانها.

«يا قوة الله».

وكدت أقع، لولا أن هب الماضي لنجدتي. لغير ما سبب، نفر الجرح الذي في قلبي، وتذكرت عيوناً أخرى، عينين واسعتين كلهما زرقة، مثل الأماكن العميقة في البحر، تذكرت الأنف الكبير، غيري كانوا يحسبونه قبحاً، وكنت أراه

جميلاً، جميلاً. سمعت بأذني ضحكة صافية عذبة، كصوت الماء البارد المدلوق. رأيت أسناناً لم تكن منتظمة ولا عاجية، ولكنني أحببتها. رأيت فماً واسعاً. رأيت حاجبين نبيلين في جبهة متغطرسة. أي شيء لم يعجبني فيها!

مضى على كل هذا عامان، وما يزال الجرح ينفر في قلبي، وما تزال تتراءى لي عند منعطف كل طريق. هذه المرأة، لماذا لا تفهم أنني ضعيف، وأنني أجنبي، فتتركني وشأني، ولا تمد لي لسانها؟ وأحسب أن الذكرى انعكست على وجهي، مثل سحابة الشتاء، فأبعدت المرأة وجهها عني، وأغلقت فمها وأخفت ابتسامتها في مكان ما. يا للغرابة، حينئذ بدا وجهها كأنه وجه أم. لعلّي نجوت.

وكأنما هدأ روعي، واستعدت سيطرتي على نفسي فسمعت ضحك الناس حولي. النساء أكثر من الرجال، والجمال أغلب. تخلصت من الكأس التي في يدي وبحثت عنها. كانت ما تزال تقف على الشط الآخر، بيني وبينها البحر ما يزال، تلك الفتاة الواسعة الفم الكبيرة الأنف الزرقاء العينين. وكانت تراقبني، كمن يهمها أمري. لعلها أجنبية مثلي. وأحسست بقدميّ تنويان السير تجاهها، لولا

أن دهمني رجل ربعة القامة، أحمر الوجه، مكتنز الخصر، في عينيه وعلى شفتيه فجور، كأنه كان يقص لأحد حكاية منكر فعله ليلة أمس. هل عاشر جون بتجمن هذا الرجل؟

«Business men with awkward hips,
And dirty jokes upon their lips».

دهمني الرجل وأنا على مفترق طرق، وورائي إغواء أحسب أنني نجوت منه. وأمامي شوق لا أعرفه، والبحر ما بيننا. نظر إليّ وكأنه لا يحفل بي. ليس معي شيء يدل هذا الرجل على «مكانتي». أنا في هذه اللحظة «أجنبي»، وحدي، وليس معي شيء يدل هذا الرجل على «مكانتي». ولا بد أنه كان حب الانتقام، فقلت للرجل، بصلف أعلم أنه من طبعي، أحاول جاهداً أن أخفيه، صلف أعلم أنه درع أستر به ضعفي، قلت للرجل:

«أنت لا شك مدير شركة أو بنك أو شيء من هذا القبيل».

لو أنه كان مثلي، لهمّه «من هذا القبيل»، لكنه تذرع بأول الجملة، وقال في سرور: «نعم. لكن كيف عرفت؟».

لو أنني كنت كريماً لأعنت هذا الرجل على الفرح،

لكنه أساءني، وأنا لا أغفر الإساءة. قلت له:

«قرأت جون بتجمن».

وبينما كان الرجل المكتنز الخصر، الداعر الشفتين؛ البطيء الذهن يحاول أن يفهم، خطوت أنا خطوة نحوها.

كنت أحسب أنني وحدي المحتفى به، لكن يبدو أن هنا أكثر من واحد، كلهم ضيوف شرف. وماذا يهمني ما دام على الشاطئ الآخر مرفأ أنزح إليه؟ لو أنها خطت خطوتين، إذاً لقرّبت عليّ الشقة، لكنني هكذا سأضطر إلى عبور البحر، وكل هذه العقبات الصغيرة في الطريق كيف أتغلب عليها؟ ومن الذي يضمن لي ألاّ أفعل شيئاً، ألاّ أقول شيئاً، قد يعوقني عن السير؟ لو أنني شربت.

«ويسكي؟».

«نعم. أشكرك».

فضلت هذا على خلق أزمة أخرى. وأمسكت الكأس أديرها في يدي، وأحرك الضوء في جوانبها ولا أعرف ماذا أقول لهذه الصبية.

«هل زرت بلدنا من قبل؟».

«لا. هذه أول مرة».

لماذا أقول الحقيقة؟ ولعلي بهذا أفتح مجالات جديدة للحديث.

«سيعجبك، ستحبه جداً، فهذا أجمل بلد في العالم».

«صدقت. حين حلقت بي الطائرة فوق شعلة النور هذه، حسبت أنني في حلم. وما أزال أعتقد أنني في حلم».

ولم تقم أزمة. إذا تمسكت بهذه الجملة، فقد أصل إلى المرفأ هذه الليلة سالماً، وقد لا أحتاج إلى الشراب.

وخطوت خطوة أخرى نحوها.

«هل هذه أول مرة؟».

«نعم أول مرة».

«سيطيب لك المقام».

«أنا واثق من هذا».

«أنا سعيدة بلقائك».

«أنا السعيد».

«أنا سعيدة بالتعرف إليك».

«بل تم لي أنا الشرف».

«هل تعجبك بلدنا؟».

«لا».

وصعقت، ونظر إليّ الرجل مشدوهاً. هذا ما كنت أخشاه. إذا لم أفعل شيئاً، فقد ينتهي الأمر بكارثة.

وتلفتّ حولي أبحث عن ملاذ. ولكن لا ملاذ. خفتت ضجة الناس في أذني وعلا لغط آخر، لم أعد أرى شيئاً غير وجهها. تلك التي ذهبت منذ عامين، لم أعد أرى غير عينيها الزرقاوين تحدقان في غضب، لم أعد أسمع غير صوتها يقول متحرشاً:

«أنت كالآخرين كذاب منافق».

تركتني لأنني كذاب منافق، ومنذ عامين وأنا أنتقم من نفسي، ومن الآخرين. لكن ليس الآن، ليتها تتركني الآن. ولا جدوى لا مهرب.

«هل هذه أول مرة؟».

«لا ليست هذه أول مرة».

«أقمت هنا شهراً قبل اليوم. سرقوني في الفندق».

«أقمت هنا شهراً قبل اليوم. عرض عليّ رجل ابنته فبصقت في وجهه».

«دعوني إلى العشاء، ودفعت أنا الثمن».

وظل الصوت الصغير، يهمس لي: «أحسنت». لكن هذا ليس وقته، لو أنني أشرب. إنما الذي لا بد منه سيحدث.

«قرأت كتبهم، ثم رأيتهم، فوجدتهم يقولون شيئاً، ويفعلون غيره».

«بلدكم جميل، لكنه مليء بالحانات والصحف».

من الذي يشرب كل هذه الخمر؟ من الذي يقرأ كل هذه الصحف؟

ولم أعد أسمع غير صوتها والصوت الصغير في داخلي يصرخان: «أحسنت، أحسنت»، ولا بد أن صوتي أخذ يعلو، فقد بدأ الناس ينظرون إليّ كالمشدوهين.

«بلدكم جميل لكن الأخ منكم لا يحب الخير لأخيه».

«بلدكم مشرق الوجه، لكن لماذا تمشون عراة في الشتاء وتلبسون الملابس الثقيلة في الصيف؟».

«فتياتكم ممشوقات القدود، لكن صدورهن كالينابيع الجافة».

وظل صوتي يعلو، ولاحظت الناس يبتعدون.

«أنتم طيبون ما في ذلك شك. لكنكم تخشون بعضكم البعض ولا تخشون الله».

«بلدكم جميل. لكنني لم أرَ فيه لحية ولا شارباً».

«أقمت هنا شهراً قبل اليوم. قالوا لي إننا نحبك. لكنهم كانوا يكذبون».

ولاحظت الناس يلتصقون بعضهم ببعض حتى أصبحوا كقطيع الضأن حين يدهمه المطر.

«خزائنكم ملأى بالكنوز. لكن المال تنفقونه على الأطباء»

«بلدكم جميل، لكن «الغرباء» فيه قليلون».

«أنتم خير أمة أخرجت للناس، لكنكم تضحكون جماعة وتبكون جماعة، وليس فيكم صوت واحد يرتفع منفرداً كآلة الكمان».

«أنتم شمّ الأنوف من الطراز الأول، لكن ليس فيكم واحد يسبح عكس التيار».

وسمعت فجأة زجاجاً يتحطم، وأحسست بلطمة قوية

على فكي. وكأنني استيقظت من نوم، فرأيت شاباً أشقر يحملق في وجهي بغضب، وتلفتّ حولي فإذا القوم كلهم قد تجمعوا كتلة واحدة على مبعدة مني، بعضهم عابس، بعضهم غاضب، بعضهم متحرش، وبعض الوجوه عليها ذلك التعبير الأجوف الذي رأيته على وجوه المصلين ذات يوم.

واقتربت الفتاة مني حتى وضعت يدها برفق على ذراعي. وخرجت المرأة من الجمع وجاءتني بكأس من الشراب، شربته فوراً، دفعة واحدة.

ووقفتا تنظران إليّ.

المرأة التي ظننتها خصماً كان وجهها وجه أم.

وقالت الفتاة بصوت لم أسمع مثله في حياتي رقة وعذوبة وصفاء، فيه شيء من صوت تلك التي تركتني قبل عامين، لكنه كان أحلى.

«كدت أيأس من لقائك. تغربت كثيراً وانتظرت، وأظنك أنت هو».

«أنت إذاً أجنبية مثلي؟».

ومسحت براحة يدها العرق عن جبيني، ووضعت يدها في يدي وقالت لي: «هيّا».

ونظرت فإذا المرأة تراقبنا وعلى وجهها حنو عظيم. كان وجهها وجه أم.

عدت إليها وقلت لها: «سامحيني فقد أسأت بك الظن» فضحكت وقالت: «لا بأس عليك. لعلي شجعتك على هذا». قلت لها: «والباقون هل يسامحونني؟» قالت: «لا تقلق. إنهم سينسون، النسيان هو فضيلتهم الوحيدة، لهذا فهم لا يعرفون الحقد». ثم نظرت إليّ الفتاة وقالت وهي تبتسم بعطف: «أختي تفكر مثلك. إن كان الفكر هو الذي تبحث عنه، فإنك ستسعد معها».

ووضعت ذراعي على كتف الفتاة. وضعت ذراعي على كتف الفتاة الواسعة الفم، الكبيرة الأنف، الزرقاء العينين، كما يضع أب ذراعه على كتف ابنته، وقلت لها: «هيّا».

وهكذا يا سادتي تزوجت. لعلها تغفر لي، تلك التي تركتني منذ عامين. وأحياناً أنسى أيهما تعيش معي، لكن لي طفلتين تغنيانني عن الأوهام.

مقدمات

أغنية حب

كنت دائماً أود أن أغني. لكن صوتي كان نشازاً، ولم أكن أستطيع أبداً أن أجيد نغمة واحدة، لسوء حظي. الى أن لقيتها. قالت إن أردت فعلاً أن أغني، فعليّ إذاً أن أغني، مهما كان وقع صوتي.

قلت: «لكن صوتي نشاز».

قالت: «غنِّ عن الحب. الناس تستهويهم أغاني الحب الحزينة».

وهكذا ابتدأت. لم يحفل الناس بي أول الأمر. ثم أخذوا يصغون. بل إن بعضهم أحب أغانيّ. كانت عيناها خضراوين وكان فمها واسعاً وحاجباها نبيلين مقوسين بروعة. كانت تحبني وتحب العالم كله، ما عدا اليابان، قتل اليابانيون أخاها في الحرب الأخيرة.

ومع هذا فقد تركتني لأنني ترددت.

أمر محزن، نوعاً ما، لأني وإن كنت أحب أن يسمع الناس غنائي، فإنني أغني لها خاصة.

خطوة للأمام

كانت ممرضة.

وكان معلماً.

تزوجا.

كان أسمر داكناً، أسود إذا شئت. لم تكن سمرتها داكنة، بيضاء إذا شئت.

كان أنفه أفطس، لكنه لم يكن قبيحاً. وكان أنفها إغريقياً، جذاباً بأي قياس قسته.

وكان شعرها نحاسي اللون، ناعماً وطويلاً، وكانت عيناها رماديتين، تذكّران الرائي بأمسيات معينة.

وكانت عيناه سوداوين، وكذا شعره الذي لم يكن أسود فحسب بل كان أكرت أيضاً.

في مكتب التسجيل في فولام رود، حيث أخذها وحيث

تركته يأخذها، كانت تصرفات المسجل لا غبار عليها، لكن خيّل لبعض الحاضرين أنه كان محرجاً بعض الشيء.

وأخذها معه إلى أهله.

أخذ يعلّم وأخذت تمرِّض، وولدت له ابناً.

«ماذا تسميه؟».

«سامي. يسهل لفظه، بالإنكليزية وبالعربية».

ونما صحيح الجسم وافر الحكمة، فكما الأب كذلك الابن، والأم ممرضة. أما الغنى فلم يكن مؤكداً.

كانت عيناه رماديتين، تذكِّران الرائي بأمسيات معينة في لندن.

وكان شعره نحاسي اللون، وكان مع هذا أكرت أشعث.

لم يكن أنفه إغريقياً ولا كان أفطس.

وهو أمر حسن.

«سيكون طبيباً»، تردد أمه باستمرار.

لك حتى الممات

كانت تعمل كاتبة اختزال في شركة التلفزيون. وكانت تسكن مع عائلة في فينشلي، وتقضي عطلات الأسبوع مع أسرتها في سيد كب. ولم يكن يبدو أنها متعلقة بأهلها كثيراً.

التقيا عشية رأس سنة ١٩٥٩، في حفلة رقص نظمها معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

«ماذا تدرس؟».

«أعد رسالة الدكتوراه في التاريخ».

كان رقصه فظيعاً، لكن معرفته باللغة الإنكليزية كانت جيدة. بدا صغير السن جداً ـ وربما كان هذا مظهراً خادعاً. وكان صوته عذباً، ورائقاً للأذن. كانت أميل إلى البدانة، فأعجبه ذلك. كانت تقاطيع وجهه وسيمة حادة، الأمر الذي لم يغب عنها.

وأعطى كل منهما الآخر رقم تلفونه.

بعد ثمانية أشهر حصلت المعجزة. ومع هذا -

قالت: «لست أدري».

قال: «أنا أيضاً لست أدري».

«عد إلى بلدك، وأنا سأسافر - إلى كندا ربما».

وهكذا عاد ليدرّس التاريخ في إحدى المدارس الثانوية.

وكتبت له من كندا تقول إنها قد حصلت على وظيفة في شركة الإذاعة الكندية وإن الحياة في أوتاوا لا بأس بها.

وكتب لها رسائل طويلة تلتهب عاطفة، وكان يختمها دائماً بقوله: «لك حتى الممات»ـ قد يخيل إليك أنه كان يبالغ.

كتبت تقول: «الراتب جيد، وكندا ممتعة، لكن لماذا علينا أن نكون بعيدين هذا البعد واحدنا عن الآخر؟».

أجاب: «لأنه من جهة، ليس من العدل أن أجرجرك إلى هذا المكان، البالغ الحرارة، والكثيف الغبار، ولأني فقير لا أستطيع أن أثقل ضميري بك».

وكانت الرسائل تحمل الحب من أفريقيا إلى كندا، ومن

كندا إلى أفرِيقيا بانتظام.

وكان الحب يشتد ـ هكذا كانت تقول الرسائل ـ وأستطيع أنا أن أصدق ذلك.

مات بالالتهاب السحائي في صيف ١٩٥١.

ولم يخبرها أحد.

ظلت بعد هذا بأشهر تواصل الكتابة وتسأل: «لماذا لا تجيب؟ أم أنك لم تعد تحبني؟».

ثم توقفت عن الكتابة.

الاختبار

كانا يعيشان في منطقة سويس كوتيج. هو محامٍ من دربان، وهي ممرضة من نطنغهام وكانا صديقي.

كانا يقيمان حفلة عشية كل سبت. يدعوان إليها أناساً من كل نوع، جلهم ممن يسمونهم اليوم «أفرو آسيويين». تلميذ طب من نيجيريا، محاضر جامعي من الهند، فتاة من الصومال تدرس الخدمات الاجتماعية، تلامذة مصريون حتى إبان معركة السويس، جميع الأنواع ـ ذلك الضرب من الأشخاص الذين يشترون صحيفة «الغارديان» ويقرأون «الأوبزيرفر» و«انكاونتر» ويتحدثون عن ألان بيتون. وكان صديقاي يصوّتان لحزب العمال.

كان هذا الطالب الغاني أسود كالابنوس، لكنه ـ إن أنت لم تكترث للونه ـ كان وسيماً. خلف حاجز اللون كان خفراً، لكنك إن سمحت له بالدخول كانت إنسانيته لا تعرف حدوداً. خلف حاجز اللون كنت في أمان. لكنك إن أزحته لم يكن

ثمة ضمان. كان ذلق اللسان، يجيد الرقص، يضحك بطلاقة. وكان من عادته أن يمد لسانه بين أسنانه الشديدة البياض عندما يتكلم، وكانت الفتيات يجدن ذلك جذاباً.

لم يكن ينبغي أن تفعل ذلك ـ لكنها علقت بحبه. ليس هذا فحسب، لكنهما أيضاً هربا معاً.

التقيت صديقي صدفة قبل أيام، على مقربة من مخازن سوان اند ادغار في ساحة بيكاديلي. حييته، لكنه لم يرد عليّ التحية، وظل يحدق أمامه بعيداً.

سوزان وعلي

كان اسمه علي. واسمها هي سوزان. الخرطوم. لندن درست الفن في معهد سليد. درس العلوم السياسية في معهد الاقتصاد في جامعة لندن.

قالت: «تزوجني». قال: «لا. صعب».

قالت: «لكني أحبك». قال: «وأنا أيضاً أحبك. لكن...».

ومن ثم عاد إلى بلده. وأخذا يتراسلان.

«لكنني أحبك يا علي».

«وأنا أحبك يا سوزان، لكن...». ستة أشهر.

كتبت تقول: «قابلت رجلاً. سأتزوجه».

كتب يقول: «لكني أحبك يا سوزان».

وانقطعت الرسائل.

يفكر بها في غالب الأحيان.

وتفكر به من حين لآخر. لكن...

الفهرس

To: www.al-mostafa.com